

THE COUNTRY OF THE BLIND

H. G. WELLS

بلد
العميان

وقصص أخرى

هربرت جورج ويلز

ترجمة: أبرار عاكف الصيرفي

إضافة
تنشر والتوزيع

الطبعة

6

بلد العميان

قصص

هربرت جورج ويلز

ترجمة

أبرار عاكف الصيرفي

مقدمة

لُقِّب الكاتب الإنجليزي هـ. ج. ويلز (١٨٦٦-١٩٤٦م) بلقب «أبو الخيال العلمي» بعد كتابة العديد من القصص والروايات الشهيرة مثل «آلة الزمن» و«حرب العوالم» و«أول رجال على القمر»..

عاصر هـ. ج. ويلز الحربين العالميتين الأولى والثانية، وشهد ظهور الاكتشافات العلمية التي غيرت وجه الأرض، وسبق زمنه متنبئًا بالكثير. وبجانب ميوله العلمية كانت له ميول سياسية.

وفي قصص هذه المجموعة يظهر أثره الكبير في النقد الاجتماعي.

بداية من نقده لفكرة التتميط والأحكام المسبقة في قصة «صانع الماس»، إلى إعادة النظر في مثل اجتماعي شهير في قصة «بلد العميان».

في «صانع الماس» يضع راوي القصة فرصة حياته بسبب أحكامه المسبقة على مظاهر الآخرين، الاهتمام العلمي للكاتب يظهر جليًا في هذه القصة خلال حديثه عن صناعة الماس، لكن صوت النقد الاجتماعي أعلى، وقد أبدع الكاتب في تصويره للشغف الإنساني والميل الطبيعي إلى التفرد، مستخدمًا الخيال للكشف عن الصراع الأبدي بين الفرد والمجتمع.

وبدیهي أن يلعب الخيال دورًا كبيرًا في رؤية الأدباء الذين يرسمون مستقبل مجتمعاتهم عن طريق إعادة النظر في المفاهيم البالية التي تتحكم في هذه المجتمعات، فلا تطور دون خيال.

في «بلد العميان» يتطور النقد الاجتماعي إلى رؤية شديدة الثورية، فالكاتب هنا يقلب الطاولة على النظام الاجتماعي بكل مكوناته ويضع جميع المفاهيم السائدة محل إعادة نظر، ويكشف رفض آلة المجتمع للاختلاف وإن كان إيجابيًا.

كتابات هـ. ج. ويلز ليست تقديمًا للحياة كما هي، لكنها تحريض مستمر وحث على التغيير. وإثارة لتساؤلات محيرة عن مدى إدراك البشر لـ«العالم الحقيقي».

هدنة من الحياة اليومية المألوفة التي تجعلنا نراكم مفاهيم ثابتة لا تُعبر بالضرورة عن حقائق هذا العالم.

بلد العميان

على بعد ثلاثمائة ميل وأكثر من جبل تشيمبورازو البركاني، ومائة ميل من قمة ثلوج كوتوباكسي، يقع بين الجبال ذلك الوادي المجهول، معزولاً عن العالم..

بلد العميان.

في الماضي كان ذلك الوادي الجبلي متصلاً بالعالم على مدى سنوات طوال وكان من الممكن الوصول إلي أرضه المنبسطة في أحضان الجبال بعد تسلق سلسلة من الأخاديد المرعبة وتجاوز ممر جليدي عسير.

بالفعل قدم إليه بعض الناس قديماً، ربما عائلة أو أكثر من أهل بيرو الهاريين من اضطهاد طاغية إسباني ما.

ثم بعد ذلك بفترة، أندلع فجأة الانفجار العظيم لبركان ميندوبامبا، لقد كان من الشدة بحيث حل الظلام على كيتو لمدة سبعة عشر يومًا متواصلة، وكانت مياه البحر تغلي في مدينة ياجواتشي وطففت الأسماك الميتة منتشرة حتى جواياكيول؛ وأنطلقت سلسلة من الزلازل بامتداد كل الأخاديد على ساحل المحيط الهادئ وأنهمرت السيول من الثلوج الذائبة لتصنع فياضانات عملاقة، ثم انهار جانب بأكمله من قمة جبل أروكا القديم محدثاً هزيم مدوي، ليقطع بلد العميان عن طريق الرحالة إلى الأبد.

وإحدًا من المستوطنين الأوائل تصادف وجوده على أسفل المنحدر عندما زلزلت الأرض بشكل رهيب، وكُتب عليه أن ينسى زوجته وابنه وجميع أصدقائه وكل ممتلكاته التي تركها خلفه بالأعلى، وأن يستأنف حياته هناك بأسفل الجبل.

لقد حاول بالفعل أن يبدأ حياته من جديد برغم إصابته بالمرض، فقد كان مصاباً بالعمى، لمنه مات بعد وقت أثر الحياة الموحشة في تلك الأخاديد.

إلا أن قصته التي حكاها أدت إلى انتشار الأسطورة بامتداد سلسلة جبال الأنديز كلها حتى يومنا هذا.

لقد حكى عن سبب مخاطرته بالنزول من ذلك الملاذ الآمن بأعالي الجبال والذي انتقل إليه لأول مرة عندما كان طفلاً، محمولاً على ظهر لاما تجاوره حزمة من الأمتعة.

قال إن ذلك الوادي به كل ما يشتهي الإنسان، من المياه العذبة، والمراعي الخضراء، والمناخ الصحي، فيه سهول من التربة الخصبة وبها أشجار وارفة تطرح العذب من الثمار، ويقع على أحد جوانبه غابة متشابكة من الصنوبر تحجب عنه الثلوج المنجرفة من الانهيارات الجليدية.

أما على مرمي البصر من الجهات الثلاث الأخرى، فترتفع حوله سلسلة ممتدة من التلال الصخرية الرمادية التي تشوبها بعض الخضرة ولا يصل إليها مسار الجليد المنجرف، بل يزحف نحو أخاديد أبعد منها، فقط بعض الكتل الثلجية الضخمة، هي التي كانت تسقط على أطراف الوادي من حين لآخر.

وعلي هذا الوادي لا تتساقط الثلوج ولا الأمطار، أما الينابيع المتناثرة فيه فقد منححت الأرض مصدراً وفيراً للرّي يغطي كامل مساحته وبنيت فيها المراعي الخضراء الخصبة.

وهكذا استوطن هؤلاء الهاريين هذا الوادي وبدأوا فيه حياة جديدة، وتناسلوا وتكاثرت أنعامهم واستقر بهم العيش.

لم يكن هناك سوى أمراً واحداً فقط ينغص سعادتهم، أمراً واحداً كان كافياً لأن يفسد جنتهم تماماً.

لقد تفشى فيهم وباء غامض جعل كل أطفالهم يولدون هناك عميان، في الواقع العديد من الأطفال الأكبر سناً بدأ يصيبهم العمى أيضاً.

وهكذا شق هذا الرجل طريقه نزولاً إلى الأخدود في شفاء مضمّن كاد يهلكه في سبيل البحث عن تعويذة أو ترياق ما لوباء العمى هذا.

في تلك الأيام، وفي حالات كهذه، ما كان الناس يؤمنون بالجراثيم والعدوى، بل كانوا يؤمنون بالخطايا؛ وقد اعتقد هذا الرجل أن سبب هذا البلاء يكمن - بلا شك - في أن هؤلاء المهاجرين لم يكن من بينهم أي كاهن، فغفلوا عن بناء معبداً فور وصولهم للوادي.

كان الرجل يريد معبداً في الوادي، جميلاً، بسيطاً، والأهم أن يكون فعالاً. معبداً يحتوى على بعض الآثار المقدسة، بعض المقتنيات المباركة أو التماثيل، بعض من تلك الأشياء التي تقوي الإيمان، وتقيم الصلوات.

كان الرجل يملك سبيكة من الفضة المحلية لا يعرف لها أهمية، لكنه أصر في كذبة ساذجة على عدم وجود مثل لها في الوادي كله، فتبرع بها، وطلب من قومه أن يتبرعوا جميعاً بأموالهم وحليهم؛ لأن هذه الثروة - على حد قوله - كانت بلا أي قيمة في الأعالي، ولكنها قد تمكنهم من الحصول على بعض المباركات المقدسة من الوديان السفلى، تنجيهم من مرضهم.

وهكذا انطلق بجسد هزيل وعينين إنطفاً نورهما، وقلباً ينهشه القلق، ينحدر من الجبال، ينشب أظفاره في حواف صخورها وتلفحه الشمس بلهيبها، ليشق طريقه للمرة الأولى إلى ذلك العالم المجهول عنهم بالأسفل.

ويصادف بعد رحلته الشاقة تلك أحد الكهنة الذي يستمع إلى قصته بأذان منصته وعيون متسعة في إنتباه شديد، ليمنحه بعدها ترياقاً مقدساً نظير الكنز الذي يحمله.

وبعدما يحصل منه على العلاج المقدس الشافي لهذا البلاء يحاول أن يلتمس طريق العودة بحمله الثمين، يتحسس طريقه صاعداً.

وفي صدمة عظمى، يدور حول نفسه متخيلاً مذعوراً وقد فاجئه حدوث ذلك الانهيار الصخري الضخم الذي توارى خلفه المضيق المؤدي للوادي إلى الأبد.

لا أحد يعرف نهاية قصة ذلك المسكين، باستثناء أنه مات بعد عدة سنوات، ضالاً وحيداً بائساً بعيداً عن ذويه.

أما تلك القصة المزرية فقد تحولت إلى أسطورة يتناقلها الناس حتى يومنا هذا عن سلالة من العميان تسكن في مكان ما (هناك بالأعالي).

بين السكان القليلين في ذلك الوادي المنعزل، شرع الوباء في التفشي، وفقد العجائز بصرهم تماماً وأنطلقوا يسحبهم الشباب ضعاف البصر الذين يرون بالكاد، بينما كل الأطفال يولدون دوماً عمياناً.

وبرغم كل شيء، كانت الحياة بسيطة للغاية في ذلك الوادي المحاط بالثلوج، المنعزل عن العالم كله، الخالي من الأشواك والنباتات الحادة، ومن الحشرات الضارة أو من أي حيوانات عموماً باستثناء فصيلة اللاما الأليفة التي جلبوها معهم وحملوا عليها أمتعتهم ليعبروا بها الأنهار والمضائق الجبلية التي أتوا عبرها قديماً.

وبالتدريج بدأ المبصرون يفقدون أبصارهم، لكنهم كانوا يفقدون العميان الصغار عبر كل موضع بالوادي حتى يحفظوا تضاريسه عن ظهر قلب.

وعندما مات آخر المبصرين وأختفى البصر من بينهم نهائياً، كان الجيل الجديد قد تأقلم جيداً على العمى، فقد كان لديهم كل الوقت كي يعتادوا الحياة بلا بصر ويجيدون السيطرة على النار التي يوقدوها بحرص

في مواقع حجرية لتدفئهم.

كان قوام هذا المجتمع في البدء مجموعة من الناس البسطاء، الأميين، الذين يحملون في ذاكرتهم بقايا طفيفة من أثر الحضارة الإسبانية، المختلطة بتقاليد وموروثات البيرو الشعبين.

لكن بمرور الأجيال طوى النسيان الكثير من هذه الأشياء، وأبتدعوا الكثير غيرها، حتى صارت فكرتهم عن العالم الأكبر الذي جاءوا منه في النهاية مجرد خرافة مشكوك في صحتها.

كانوا رجالاً أشداء وقادرين على فعل الكثير باستثناء الرؤية، وفي طفرة وراثية ظهر بينهم شخص يملك عقلاً حاذقاً استطاع تعليمهم بعض المهارات، ثم جاء من بعده حكيماً آخر.

وقد مات كلاهما بعدما ترك خلفه إرثاً حضارياً هاماً، ونما هذا المجتمع المحدود وأزداد في العدد والفهم والتواصل فيما بينهم واستطاعوا إيجاد الحلول لكل مشكلة اجتماعية أو إقتصادية صادفتهم على مر الأجيال.

وفي الجيل الخامس عشر بعد ذلك الجد الذي خرج يوماً من الوادي بسبيكة فضة بحثاً عن الغوث الإلهي، ولم يعد بعدها قط. تصادف أن يقتحم رجل من العالم الخارجي هذا المجتمع المنغلق.

كان متسلق جبال من بلدة قريبة من كيتو، رجل قد ركب البحر وطاف العالم، قارئ نهم للكتب، ومغامر مقدام، رافق حملة من الإنجليز أتوا إلى الإكوادور ليتسلقوا الجبال، بدلاً عن أحد مرشديهم السويسريين الثلاثة الذي أصابه المرض.

وقد تسلق الرجل العديد من الجبال معهم، حتى بدأ في محاولة تسلق قمة الباراسكوتوبيتل الجليدية التي تعتبر أصعب قمة في جبال الأنديز، وهي المحاولة التي اختفي خلالها.

ولقصة ذلك الحادث عدة روايات، لكن رواية بوينتر - قائد الحملة- هي الأكثر واقعية.

فقد قال بوينتر: أن فريق المتسلقين قد شق طريقاً عسيراً شبه عمودي إلى أعلى حتى وصلوا لأقرب سطح للهاوية الكبرى، ثم نصبوا خيمتهم فوق بروز صخري بين الثلوج ليقضوا ليلتهم، عندما اكتشفوا فجأة غياب نونيز.

وفي مشهد درامي مأساوي أنطلقوا ينادون باسمه ويصيحون ويطلقون الصفارات في كل صوب طوال الليل ولكن بلا أي رد في النهاية.

وفي الصباح رأوا آثار سقوطه واضحة.

كان جلياً أنه أنزلق دون أن ينطق بأي كلمة، وقد سقط شرقاً نحو الجانب المجهول من الجبل؛ كان أثر سقوطه عبر الجليد واضحاً مخلفاً نفقاً في الثلج يقود مباشرة إلى عمق الهاوية وينقطع بعدها.

وفي أسفل الهاوية البعيد جداً المختفي وسط الغيوم، استطاعوا أن يروا غابة من الأشجار المرتفعة في وادٍ ضيق قصي، لا يختلف بأي حال عن أي واد جبلي ضيق آخر.

وبسبب هذه الكارثة، لملموا أشياءهم وقفوا راجعين، وبعدها بفترة تم استدعاء بوينتر للحرب قبل أن يتمكن من تنظيم حملة جديدة. وهكذا بقيت قمة الباراسكوتوبيتل محتفظة ببقايا مخيم بوينتر حتى يومنا هذا دليلاً على إنها لا تقهر أبداً.

لكن نونيز قد نجا.

لقد أندفع منزلقاً لمسافة ألف قدم حتى حافة الهاوية ليسقط بالأسفل في منتصف سحابة ضخمة من الثلوج فوق منحدر جليدي أشد وعورة من المنحدر الأعلى، ليتمدد فاقدًا للوعي مدفوناً وسط كومة

ناعمة من ندف الثلوج التي حاوطته وخفت حدة سقوطه لتحفظ جسده سليماً دون كسور.

تدريجياً يعود إليه وعيه، وفي البدء يظن أنه طريح الفراش يهلوس ثم يفطن لحقيقة ما حدث، وبخبرة متسلق عتيق يشتق لنفسه طريقاً وسط الثلوج حتى يستطيع أخيراً تحرير جسده، فيستلقى على وجهه برهة يلتقط أنفاسه، متسائلاً عما حدث له؟ ويبدأ بتفقد جسده ليطمئن على سلامته.

يكتشف أن معطفه قد تمزقت أزراره وأنقلب على رأسه، فيعدل ملابسه ويبحث في جيبه ليدرك أنه فقد سكينه، وفأس التسلق كذلك، و لم يجد قلنسوته على رأسه رغم أنه كان يربطها أسفل ذقنه. لم يكن يذكر مما حدث سوى أنه كان يبحث عن بعض الصخور ليشد عليها خيمته، فلا بد أنه سقط بعدها.

ينظر لأعلى لتنهوله المسافة الهائلة التي سقطها، فيستلقي لبرهة محدقاً في الفضاء الشاسع تحت ضوء القمر، ويفزع الارتفاع الشاهق للمنحدر فوق رأسه الذي يتألق وسط الظلام في وهج غامض، فتغلبه نوبة من الضحك الهستيري المختلط بالنعيب.

بعد مرور فترة طويلة من الوقت يدرك أخيراً أنه قريب من الحافة السفلية لقمة الجبل الجليدية، وعلى ضوء القمر يري تحته منحدرًا منبسط، سهل النزول، يؤدي إلى كومة متفرقة من الصخور الظلماء المتناثر بينها العشب.

يتحامل على نفسه وهو يشعر بالآلام حادة في كل أطرافه ومفاصله، ويتحرك بمشقة بالغة وسط الثلوج المتكومة حوله، ليهبط ببطء إلى الأسفل حتى يصل بعد عناء إلى العشب.

يلقي بجسده المنهك جوار صخرة ضخمة، ويخرج من جيب معطفه الداخلي قارورة المياه ويشرب منها بشراهة ثم يغمض عينيه ليغوص في نوم عميق فوراً.

يوقظه صوت الطيور تغرد على أشجار بعيدة بالأسفل.

فيعتدل جالساً ليلحظ أنه فوق هضبة قريبة من السفح الشاسع للهاوية التي أنزلق عليها وسط الثلوج، ويرى أمامه جدار ضخم آخر من الصخور يرتفع لعنان السماء.

وبين هاتين الهوَّتين يمتد أخدوداً مضاءً بنور الشمس المشرقة والتي تنعكس أشعتها من ناحية الغرب على أنقاض الصخور والجليد المنهار الذي قطع الطريق بين الأخدود والمنحدر.

في المستوى الأسفل من ذلك يرى منحدر صعب بنفس القدر، أما في وسط الأخدود أمامه فيجد فجوة عظيمة جداً تتساقط منها مياه الثلوج الذائب لأسفل نحو المجهول.

وفي قلق بالغ يخاطر بالزحف على الأخدود لبلوغ تلك الفجوة، لكنه يجد الأمر أسهل مما تخيل.

أخيراً ينزلق عبرها إلى باطن الجبال من على تل مهجور بداخلها، يذهله المساحة الشاسعة الموجودة بالداخل، ثم يتسلق صخرة ضخمة بلا عناء كبير ليجد بعدها ممراً جبلياً جديداً تحاوطه الأشجار من كل جانب.

يحاول تحديد الاتجاهات حوله ويولي وجهه لنهاية ذلك الممر المتصاعد، فيراه مفتوحاً من الجانب الآخر على مروج خضراء واسعة، تظهر بينها بوضوح مجموعة من الأكواخ المبنية من الحجارة بطريقة غريبة.

في حماسة يتقدم نحوها، يسير أحياناً ويتسلق أحياناً حتى كفت الشمس بعد فترة عن إضاءة الممر، وتلاشت أصوات الطيور المغردة، وزحفت علي الجو البرودة وخيم الظلام، لكنه خارج الممر الضيق وعلى مرمي بصره يرى الوادي بمنازله ظاهراً تحت أشعة الشمس الكاشفة.

يتقدم قليلاً حتى يصل إلى كومة من الصخور، يلاحظ بينها أوراق نبات غير مألوف يبدو كأنه ينبت من بين شقوق الصخور بأوراق شديدة الاخضرار، يلتقط سعفة منه ويقضم ساقها فيستسيغ طعمه ويشعر في

أكله.

وبعد منتصف اليوم تقريباً يخرج أخيراً من ذلك الممر الخانق إلى السهل المنبسط وضوء الشمس.

يجلس متعباً في إرهابٍ تحت ظل صخرة ضخمة، ويملاً قارورته بالمياه من نبع بجواره ليشربها مرة واحدة، ويستريح قليلاً قبل أن يتحرك نحو المنازل.

شكل المنازل يبدو غريباً جداً على عينيهِ، في الواقع إن هذا الجانب من ذلك الوادي المختفي في باطن الجبال بأكلمه غريباً وغير مألوفاً بأية صورة.

فالجزء الأغلب من سطح الوادي عبارة عن مرج أخضر خصيب، مزداناً بالعديد من الأزهار الجميلة، المروية بعناية فائقة، وتحمل آثاراً واضحة على الحصاد المنتظم.

ويظهر حول الوادي جدار عالٍ يحاوط كامل حدوده، وأمام هذا الجدار تدور قناة مائية حول محيط الوادي بمحاذاة الجدار، وتخرج منها قنوات مياة فرعية أصغر تغذي نباتات ومروج الوادي.

فوق هذا في المنحدرات الوعرة العالية تنتشر قطعان اللاما ترعى على الكلاً، وعلى حدود الوادي بالقرب من الجدار العازل فتتناثر العديد من الحطائر المسقوفة، يبدو إنها مخصصة لتربية اللاما.

أمام كل قنوات الري الفرعية داخل الوادي فإنها تتحد معاً لتصب في قناة رئيسية في مركز الوادي، يحيطها من كلا الجانبين جدار صغير متوسط الارتفاع، مما يبرز آثار حضارية خاصة لهذا المكان المستتر، آثاراً تبدو واضحة بقوة في حقيقة وجود عددًا من الشوارع المرصوفة بأحجار سوداء وبيضاء، ولكل شارع منها رصيف صغير غريب الشكل على جانبه، وتمتد هذه الشوارع في مختلف الاتجاهات بمنهج منتظم.

أما منازل القرية الرئيسية فهي تختلف تماماً عن تلك التجمعات العشوائية البدائية لمنازل القرى الجبلية التي عرفها من قبل.

فهذه المنازل تتراص في صف منتظم على جانبي الشارع الرئيسي في نظام مذهل؛ وفي منتصف واجهاتها الملطخة بالألوان تستقر الأبواب ولكن دون أن يحتوى أي جدار منها على أية نوافذ.

وكل هذه المنازل ملطخة بالألوان في غرابة شاذة، بتداخل عجيب من الألوان التي أحياناً ما تكون رمادية وأحياناً تكون مخضرة وأحياناً تميل للزرقة وربما تكون بنية غامقة!

إن أول خاطرة جابت ذهن نونيز وهو يرى مظهر هذا الطلاء العشوائي هي العمى، لابد إن الرجل الذي دهن هذه المنازل كان أعمى كالخفاش!

يهبط نونيز على منحدر بسيط، حتى يصل إلى الجدار والقناة التي تجري حول الوادي، بالقرب من مكان المصرف الذي تخرج المياه الفائضة من خلاله إلى أعماق الأخدود على هيئة شلال ضيق متعرج.

يلاحظ عندها عدداً من الرجال والنساء نائمون فوق أكوام من القش المكدمس، كما لو أنهم يأخذون قيلولة.

وفي الجانب الآخر من المرج بالقرب من مركز الوادي، يرى عدداً من الأطفال الراقدين، وعلى مقربة منهم يرى ثلاثة رجال يحملون دلاء على عوارض خشبية، يخرجون في صف واحد من فتحة في الجدار الذي يطوق المنازل، ويرتدون معاطف من صوف اللاما وأحذية وأحزمة من الجلد، وعلى رؤوسهم قبعات من القماش تغطي الأذنين. يمشون ببطء متثاقين، كأنهم لم ينالوا قسطاً من النوم طوال الليل، إلا إن مظهر الرخاء والهدوء في هيئتهم يبعث بالطمأنينة في نفس نونيز.

بعد دقيقة من التردد يقف نونيز مظهرًا نفسه قدر الإمكان فوق صخرته، ثم يأخذ شهيقاً عميقاً ليطلق صيحة قوية يتردد صداها في أرجاء الوادي.

يتوقف الرجال الثلاثة فجأة، ويحركون رؤوسهم في كل اتجاه بحثاً عن مصدر الصوت، بينما نونيز يلوح بذراعيه في عنف، لكن لا يظهر عليهم أنهم رأوا أي من إشارات، وبعد فترة، يوجهوا أنفسهم ناحية الجبال بعيداً نحو اليمين، ويصيحون رداً على صيحته. فيصرخ نونيز مرة ثانية، وثالثة وهو يلوح لهم بلا جدوى، فيقول لنفسه في حنق لا بد أن هؤلاء الحمقى عمياناً.

أخيراً، بعد كثير من الصراخ الغاضب، يعبر نونيز المجرى المائي فوق جسر صغير، ويدخل من خلال بوابة في الجدار، ليقترّب منهم، وهو على يقين شديد أنهم عميان، بل لقد أيقن كذلك أن هذا هو بلد العميان الأسطوري.

انبثق ذلك اليقين من قلبه يصاحبه شعور عميق بالمغامرة المثيرة الكبرى التي تنتظره.

يقف الثلاثة متجاورين لا ينظرون نحوه، لكن آذانهم موصبة بإتجاهه يقيمون وقع خطواته غير المألوف، يقتربون من بعضهم البعض في وجل، ويرى أجفانهم مقفلة وغائرة، كما لو أن كرات العيون تحتها قد تقلصت. ويسود وجوههم تعبير قلق مدعور.

يقول أحدهم بإسبانية عسيرة الفهم:

- رجل.. إنه رجل أو روح.. تهبط من الصخور.

يتقدم نونيز بخطوات واثقة نحو شاب في مقتبل العمر، وهو يذكر كل القصص المأثورة عن الوادي المفقود وبلد العميان، وفي ذهنه يتردد مثل قديم كأنه هتاف:

«في بلد العميان يصبح الأعور ملكاً».

«في بلد العميان يصبح الأعور ملكاً».

وفي تهذيب بالغ يحييهم ويحادثهم وهو ينظر حوله متأملاً.

يسأل أحدهم:

- من أين أتى، يا أخ بدرو؟

فيرد بدرو هذا:

- لقد هبط من الصخور.

يقول نونيز:

- أتيت من خلف الجبال.. من خارج البلاد.. هناك حيث الناس يبصرون، بالقرب من بوجوتا، حيث يعيش مئات الآلاف من البشر، وحيث تمتد المدينة على إمتداد البصر.

يتمتم بدرو:

- البصر؟!!

يقول الرجل الآخر:

- لقد أتى.. من الصخور.

يتأمل نونيز قماش معاطفهم المفصل بشكل غريب، المحاك بأشكال مشوهه من الغرز، وبحركة متزامنه يفرعون به بتحركهم نحوه وكل واحد يمد يده المفروده بإتجاهه، فيتراجع خطوة أمام هجوم هذه

الأصابع الممدودة.

يقول الأعمى الثالث آمراً:

- تعال هنا، ثم يتابع تحركه حتى يمسكه برفق.

ودون أن ينطقوا بكلمة واحدة تمتد أصابعهم تتحسس جسده وتتفقده.

«احترسوا».. يصيح بها نونيز وقد غرس أحدهم أصبعه في عينه.

وبفهم أنهم يجدون هذا العضو ذو الأجفان التي ترمش غريباً عليهم، فيعيدون الكرة ثانية.

يقول بدرو:

- إنه مخلوق غريب يا كوريا.. شعره خشن كشعر اللاما.

يقول كوريا وهو يتحسس بيده الناعمة الرقيقة ذقن نونيز الخشنة:

- إنه خشن كالصخور التي أنجبته.

ثم يكمل:

- ربما يصير أنعم فيما بعد.

يقاوم نونيز تفحصهم له، لكنهم يمسكون به بحزم، فيقول مرة أخرى:

- احترسوا.

يقول الرجل الثالث:

- إنه يتكلم.. بالتأكيد هو رجل.

يتأفف بدرو وهو يتحسس خشونة معطفه ثم يسأله:

- هل جئت إلى العالم حالاً؟

- لقد جئت من العالم الخارجي، هناك من فوق الجبال والأنهار الجليدية بالأعلى، في منتصف الطريق إلى الشمس. من العالم الكبير الضخم في الأسفل، عبر رحلة من اثني عشر يومًا في البحر.

وكأنهم لم ينتبهوا لأية كلمة قالها، يستطرد الثالث:

- لقد علمنا الآباء أن البشر يُصنعون بفعل الطبيعة.

يعقب كوريا في حكمة:

- بفعل الدفء، والرطوبة، والتحلل.

فيقول بدرو:

- لنأخذه للشيوخ.

يقول كوريا:

- صيحوا أولاً حتى لا تفزعوا الأطفال... إنها صدفة رائعة.

ينطلقون في الصباح ثم يتقدم بدرو ويتناول بيد نونيز ليقوده إلى المنازل، فيسحب نونيز يده بعيداً قائلاً:

- أنا أرى.

يقول كوريا مندهشاً:

- ترى؟!

فيرد نونيز:

- نعم، أرى.

وبستدير نحوه ليواجهه لكنه يتعثر في دلو بدرو.

فيقول الرجل الثالث:

- إن حواسه لم تكتمل بعد.. إنه يتعثر، ويقول كلمات بلا معنى؛ خذ بيده.

فيقول نونيز ساخراً:

- كما تشاء.

ويتركهم يقودونه، وهو يضحك.

يبدو أنهم لا يعرفون شيئاً عن النظر، ولسوف يعلمهم في الوقت المناسب.

يسمع أشخاص يصيحون، ويرى عددًا منهم متجمعين في منتصف الطريق إلى القرية.

لقاءه الأول مع سكان بلد العميان يثير أعصابه ويفقده صبره أكثر مما توقع. فمع إقترابه كان يظهر له إتساع المكان أكثر، ويتجلى له قبح طلاء المنازل أكثر.

يحتشد حوله العديد من الرجال والنساء والأطفال، في الواقع يسعده أن يلاحظ العديد من وجوه النساء الناعمة الرقيقة برغم عيونهن الغائرة المغلقة.

ويتجمع الحشد من كل مكان ليقفوا أمامه، يلمسونه بأيادٍ ناعمة رقيقة، يتشمموه، ويستمعون إلى كل كلمة يقولها. برغم أن بعض الأطفال ظلوا بعيدين كما لو أنهم يهابونه، وفي الحقيقة بدا صوته مقارنة بأصواتهم أجشاً شديد الخشونة.

بينما بقى الثلاثة الذين يقودونه قريبين منه كأنهم يمتلكونه، وهم يقولون لكل وافد جديد:

- إنه مخلوق بدائي جاء من الصخور.

فيقول مصححاً كل مرة:

- من بوجوتا.. بوجوتا. من وراء الجبال.

يقول بدرو:

- مخلوق بدائي.. يستخدم كلمات بدائية.. هل سمعتم ذلك.. بوجوتا؟ إن عقله لم ينضج بعد، إنه لازال في بداية تعلم الكلام.

يقرصه طفل صغير من يده وهو يقول ساخرًا: - بوجوتا

فيرد بنفاذ صبر:

- نعم! إنها مدينة كبيرة وليست قرية كهذه، أنا أتيت من العالم الكبير.. حيث الناس لديهم عيون وبيصرون.

يقولون:

- اسمه بوجوتا.

ويقول كوريا:

- لقد تعثر مرتين ونحن قادمون إلى هنا.

- خذوه للشيخ.

يدفعونه فجأة ليدلف عبر باب إلى غرفة سوداء كالفحم، في نهايتها نار موقدة لها وهج ضعيف، بينما يحتشد الجمع خلفه ليسد عنه نور النهار المسلل للغرفة، وقبل أن يتماسك يتعثر في قدم رجل جالس ليسقط على وجهه، وتطيش ذراعه وهو يقع لترطم بوجه رجل آخر، يشعر بنعومة ملمسه وهو يسمع صرخته المحتجة، وللحظة يكافح عدد من الأذرع الممدودة نحوه تحاول الإمساك به ثم يستوعب الموقف في اللحظة المناسبة ويستقر ساكنًا وهو يقول:

- لقد تعثرت، لم أرى أي شئ في هذا الظلام الحالك.

يسود الصمت فجأة، كأن الأشخاص الخفيين حوله يحاولون استيعاب كلماته، ثم ينطلق صوت كوريا في الظلام قائلاً:

- إنه لم ينضج بعد.. لازال يتعثر وهو يمشي وينطق بكلمات بلا معنى.

تنطلق أصوات آخرين أيضًا وهم يقولون أشياء عنه لم يتبينها بشكل كامل.

فيقول:

- هل يمكنني الجلوس؟

يسود الصمت مرة أخرى.

- لن أقاومكم ثانية

يتشاورون قليلاً ثم يتركوه ينهض.

يبدأ صوت رجل عجوز في استجوابه، فيشرع نونيز في محاولة شرح مفهوم العالم الخارجي الكبير الذي جاء منه، والسماء والجبال والبصر والأعاجيب المشابهة، لهؤلاء العجائز الجالسون في الظلام في بلد العميان!

إنهم لا يستعوبوا شيئاً من حديثه فضلاً عن أن يصدقوه، وهو أمر لم يكن يتوقعه البتة، إنهم حتى لم يفهوا معاني العديد من كلماته.

لقد ظل هؤلاء الناس عمياناً، منعزلين عن العالم كله لمدة أربعة عشر جيلاً كاملاً، فذابت بينهم أسماء الأشياء المتعلقة بالبصر أو أختلفت؛ وتغيرت قصة العالم الخارجي وتحولت بينهم إلى قصة أطفال؛ لقد كفوا منذ زمن بعيد عن الاهتمام بأي شيء خلف المنحدرات الصخرية الواقعة خلف الجدار العازل الذي يحاوطهم.

لقد ظهر من بين العميان قديماً الكثير من الفلاسفة وناقشوا معتقداتهم وتقاليدهم التي جلبوها معهم من أيام بصرهم، ولفظوا كل هذه الأفكار باعتبار إنها خيالات مضللة، واستبدلوها بتفسيرات عقلانية جديدة.

لقد تلاشت الكثير من معتقداتهم مع تلاشي أبصارهم، وصنعوا لأنفسهم معتقدات جديدة قوامها ما تلتقطه مسامعهم الحادة وما تلمسه أصابعهم المرهفة.

يدرك نونيز هذه الحقيقة في بطاء، ويتبدد حلمه بإثارة ذهولهم وتعظيمهم لعينيه وقدرته على الإبصار، وبعد محاولته البائسة في أن يشرح لهم مفهوم البصر. يزداد يقينهم بأنه كائن بدائي مشوش الحواس يصف مشاعره بكلمات غير مترابطة.

فيحاول أن يهدأ قليلاً ويجلس في إحباط ليستمع إلى تعاليمهم.

يفسر له أكبر العميان سناً مفاهيم الحياة والدين والفلسفة، ويقول أن العالم (يقصد وادي العميان) في البدء كان فجوة فارغة وسط الصخور، ثم جاءت الأشياء الجامدة بدون موهبة اللمس أولاً، وبعدها جاءت اللاما وعدد قليل من المخلوقات الأخرى ذات الإدراك المحدود، ثم جاء بعد ذلك البشر، وأخيراً جاءت الملائكة، الذين قد يسمع البشر غنائهم ويصدرون صوت رفرقة، لكن لا أحد يستطيع أن يلمسهم أبداً.

لقد حير هذا الأمر نونيز كثيراً حتى فهم أنهم يقصدون الطيور.

ويستمر العجوز في الشرح لنونيز فيفهمه أن اليوم ينقسم إلى دافئ وبارد، - وهو ما يعادل النهار والليل عند العميان - ، وكيف أنه من الجيد أن يناموا في الدفء ويعملوا في البرد؛ ولذلك فالآن، لولا قدومه إليهم، لكانت قرية العميان بأكملها نائمة.

يقول إن نونيز لا بد أنه قد خلق خصيصاً كي يتعلم ويخدم الحكمة التي اكتسبوها، وأنه بالرغم من بدائية عقله وتشوش سلوكه، إلا إنه يجب أن يكون شجاعاً وأن يبذل كل ما بوسعه لكي يتعلم، وهو ما لاقى استحسان القوم المحتشدون عند الباب.

يقول العجوز إن الليل قد مضى منه الكثير - فالعميان يسمون نهارهم ليلاً - ، ومن الجيد أن يذهب الناس للنوم الآن.

ثم يسأل نونيز عما إذا كان يعرف كيف ينام؟ فيقول نونيز إنه يعرف، لكنه يريد طعاماً قبل النوم.

يجلبون له طعاماً عبارة عن لبن لاما في جرة، وخبز مملح خشن ثم يقتادونه إلى ركن منعزل ليأكل بعيداً عن مسامعهم، ثم يخلدون بعدها للنوم لحين أن توقظهم لسعة برد الليل الجلي ليباشروا يومهم.

لكن نونيز لا يغمض له جفن، ويبقى جالساً حيث تركوه يريح جسده ويفكر كثيراً في ملابس وصوله المفاجئة لهذا المكان، ويضحك كل حين، تارةً بمرح، وأخرى بحنق.

«عقل بدائي، وحواس غير مكتملة!».. إنهم لا يعرفون أنهم يهينون ملكهم وسيدهم المرسل بأمر السماء.

يجب أن يواجههم بالمنطق.

وينهمك في التفكير، والمزيد من التفكير حتى تغرب الشمس.

يدور ببصره على كل المناظر الخلابة من حوله، ويبدو تلاًأ ضوء الشمس فوق ثلوج المرتفعات والأنهار الجليدية التي تحاوط الوادي من كل جانب من أجمل المشاهد التي رآها على الإطلاق.

ينقل بصره عبر تلك العظمة الخلابة إلى شكل القرية والحقول المروية الغارقة في ألوان الغروب، لتنتاب قلبه موجة من البهجة ويشكر الله في صدق على نعمة البصر.

«بوجوتا.. تعال هنا».

يسمع صوتاً يناديه من القرية فيقف مبتسماً، وقد أنتوى أن يبين لهم أهمية البصر عندما يبحثون عنه ولا يجدونه أبداً.

«لا تتحرك، يا بوجوتا».

يقولها الصوت في صرامة فيضحك نونيز في صمت ثم يزحف بهدوء خطوتين بعيداً عن طريقهم.

«لا تخط على العشب، يا بوجوتا، هذا ممنوع».

يتوقف نونيز مندهشاً، فهو لم يصدر أي صوت لخطوته تلك.

يأتي صاحب الصوت مهرولاً نحوه على الشارع المرصوف، فيخطو نونيز عائداً إليه ويقف ليقول : هأنذا.

يقول الرجل الأعمى:

- لماذا لم تأت حينما ناديتك؟ أيجب أن تقاد كالطفل؟ ألا يمكنك سماع الطريق وأنت تمشي؟

يضحك نونيز قائلاً:

- بل أستطيع رؤيته.

فيقول الرجل الأعمى بعد برهة:

- لا توجد كلمة تُدعى رؤية.. كف عن هذه الحماقة، واتبع صوت خطواتي.

فيتبعه نونيز في ضيق، وهو يقول: سوف تحين فرصتي قريباً.

فيرد الرجل الأعمى قائلاً:

- سوف تتعلم.. هناك الكثير لتتعلمه في هذا العالم.

- ألم يخبرك أحد أنه في بلد العميان يصبح الأعور ملكاً؟!

- ماذا تعني كلمة أعمى؟

يسأله الأعمى بغير إكتراث

تمر أربعة أيام، ويأتي الخامس ولا يزال (ملك العميان) نكرة، مجرد غريب، أخرق، عديم النفع بين شعبه.

ويجد أن تنصيب نفسه ملكاً عليهم أمر عسير أكثر بكثير مما تخيل، ومؤقتاً، بينما يخطط للسيطرة عليهم، يستمر في طاعة أوامر العميان ويتعلم منهم عاداتهم وتقاليدهم.

وكان أشد ما يزعجه، موضوع العمل ليلاً والنوم نهاراً، لذا فكان قراره بتغيير ذلك هو أول ما سيفعله حينما يحين الوقت.

ويجد إن هؤلاء القوم قاموا بتأسيس مجتمع بسيط كادح، يضم كل عناصر الأخلاق والسعادة، كما يفهم البشر تلك الأشياء.

فهم يعملون بجد ولكن بدون مبالغة في المشقة؛ ولديهم أيام عطلات وأعياد، ولديهم طعامًا وكساءً كافيًا للجميع؛ ولديهم موسيقاهم وأغانيتهم الخاصة بهم، وهم يقدسون الحب والأطفال والحياة الأسرية.

وقد نظموا عالمهم بدقة وإتقان مذهلين، كل شيء تم صنعه ليلائم احتياجاتهم؛ كل طريق متفرع في الوادي يتصل بزواوية ثابتة مع الطرق الأخرى، ويتميز عن غيره بعلامة خاصة على رصيفه.

كل العقبات والمطبات في الطريق والمرج قاموا بإزالتها منذ زمن؛ وجميع وسائلهم وأنظمتهم نشأت بصورة طبيعية من حاجاتهم الخاصة، كما إن حدة حواسهم قد تطورت بصورة مذهلة؛ فقد كانوا يستطيعون سماع وتمييز أقل حركة للشخص على بعد عدة خطوات..

بل كانوا حتى يستطيعون سماع صوت ضربات قلبه.

نعمة الصوت حلت بينهم بدلاً من تعبيرات الوجه، واللمسات بدلاً من الإشارات، ويستعملون الفأس والجاروف وشوكة الزراعة بمهارة تضاهي أفضل المزارعين.

أما حاسة الشم فقد تطورت لديهم بشكل استثنائي؛ فقد كانوا يستطيعون تمييز روائح الأفراد بسهولة مثلما تفعل الكلاب، وقد أقتادوا حيوانات اللاما، التي عاشت بين الصخور بالأعلى وجلبوها إلى الحظائر لتربيتها بمنتهى السهولة والإتقان.

أخيراً يبدأ نونيز في السعي للسيطرة على القوم عندما تأكد من مدى بساطة حياتهم وطباعتهم.

يحاول في عدة أحيان أن يخبرهم عن الرؤية، ربما مرة أو اثنتان تجمع حوله نفر قليل منهم ليجلسوا أمامه بوجوه مطرقة وأذان منصته يصغون لحديثه، وهو يبذل قصارى جهده ليخبرهم بمعنى البصر، ومن بين هؤلاء المستمعين توجد فتاة، ذات أجفان أقل إحمراراً وغوراً من الآخرين؛ حيث تبدو كأنها مجرد أجفان مسبلة تخفي خلفها عيوناً مفتوحة، تهتم بكلامه أكثر من غيرها.

ويستمر في حديثه عن نعمة البصر، عن رؤية الجبال والسماء وشروق الشمس.

في البدء كانوا يستمعون إليه على سبيل التسلية ثم بعد ذلك أصبح كلامه مستهجنًا.

يخبروه أن في الحقيقة لا توجد جبال على الإطلاق، بل إن نهاية الصخور حيث ترعى اللاما هي نهاية العالم؛ من ذلك المكان ينبثق سقف كهف الكون، من حيث يسقط الندى وندف الثلج.

وعندما يصير بقوة على أن العالم بلا نهاية أو سقف كما يعتقدون، يقولون إنه يهرطق.

لكنه إلى حد ما يستطيع أن يصف لهم شكل السماء والسحب والنجوم، ويفزعهم تصور هذا الخلاء الشنيع، هذا الفراغ الرهيب مكان السقف الأملس الذي يؤمنون بوجوده. لأن من ضمن معتقداتهم أن السقف الكهفي للكون شديد النعومة رقيق الملمس.

حينما يرى أنه صدمهم في معتقداتهم، يتخلى سريعاً عن هذه المسألة تمامًا، ويقرر أن يحاول أن يظهر لهم القيمة العملية للنظر.

في صباح أحد الأيام يلجح بدرو قادمًا نحو المنازل عبر الطريق السابع عشر، يراه بعيدًا جدًا أبعد من أن يسمع أحدهم خطواته أو يشتم رائحته، فيخبرهم بأن بدرو سيكون هنا بعد قليل.

فيعلق رجل عجوز بأن بدرو ليس لديه عمل في الطريق السابع عشر، وكأن بدرو يؤكد كلام العجوز، يستدير ليحول مساره إلى الطريق رقم عشرة. ويتراجع بخطوات خفيفة نحو الجدار الخارجي. وعندما لا يصل بدرو إليهم ينطلقون في السخريّة من نونيز.

فيما بعد حينما طلب من بدرو أن يشرح له تصرفه، أنكر بدرو الأمر في تحدي، مما تسبب في نشوب خصام بينهما.

في مرة أخرى يقنعهم بأن يتركوه ليذهب بعيداً فوق المروج المنحدرة نحو الجدار مع شخص متطوع، ويعدّهم أن يصف لهم كل ما يحدث بين المنازل.

وبالفعل يرى بعض التفاصيل ولكن الأشياء التي تهم هؤلاء الناس حقاً كانت تحدث داخل هذه المنازل معدومة النوافذ - الأشياء التي لاحظوها هم ليختبروه بها- وبالطبع لم يستطع رؤيتها وإخبارهم.

بعد فشل هذه المحاولة تزداد نبرة السخريّة منه بصورة طاغية لا يستطيع منعها، فيقرر اللجوء للقوة.

وبالفعل يستولي على جاروف ويقرر أن يضرب به أحدهم أو أكثر ليسقطهم أرضاً في منافسة عادلة تظهر أفضلية النظر.

ويرفع الجاروف في وجوههم ليكتشف شيئاً جديداً عن نفسه، أنه من المستحيل أن يضرب رجلاً أعمى بدم بارد.

يرتبك ويتسمر في مكانه، ويجدهم جميعاً مدركين أنه يرفع جاروفاً، فيقفون جميعاً منتبهين، تميل رؤوسهم في اتجاه واحد، ويوجهون مسامعهم نحوه يترقبون ما يفعل.

يقول أحدهم آمراً: - ألق ذلك الجاروف من يدك.

يشعر نونيز بنوع من الرعب العاجز، ويكاد أن يطيع الأمر، إلا أنه فجأة يدفع أقربهم إليه نحو حائط أحد المنازل، ثم يتجاوزه فارا إلى خارج حدود القرية.

يذهب مغاضباً عبر أحد مروجهم، تاركاً أثراً من العشب المنسحق خلف قدميه، ليجلس بجانب إحدى الطرق، تتدفق الدماء الحارة في عروقه مثل كل رجل يحتشد للقتال، لكن بعد لحظات تتنابه حيرة مقيته، فهو لا يجزء على قتال كائنات ذات إدراك حسي أقل منه.

ومن مسافة بعيدة جداً يرى عدداً من الرجال يحملون الجواريف والعصي يخرجون من طريق المنازل، يتقدمون متجاورين بالعرض في صف طويل يطوقون كل الطرق المختلفة.

يتقدمون ببطء، يتحدثون بشكل متكرر مع بعضهم البعض، ومن حين لآخر يثبت هذا الطوق البشري بأكمله ليشم الهواء ويصغي السمع.

يضحك نونيز لمرآهم يفعلون هذا أول الأمر ثم يتوقف عن الضحك بعدها، وهو يرى أحدهم يطاء في آثار نونيز في عشب المرح، ثم ينحنى ليتتبع آثار مساره.

ولمدة خمس دقائق يلاحظ نونيز تضيق الخناق عليه، وبعدها تصبح ضرورة القيام بفعل ما أمراً ملجأ.

يقف، ويخطو نحو الجدار العازل، ثم يستدير ليضعه في ظهره، ويواجههم، وقد وقفوا جميعاً في شكل قوس أمامه، ثابتين يصغون السمع.

كذلك يقف هو ساكناً، قابضاً على الجاروف في قوة.

هل لابد من قتالهم؟!

وتدوي الكلمات في ذهنه كقرع الطبول..

«في بلد العميان يصبح الأعور ملكاً»!

هل لابد من قتالهم؟

ينظر خلفه إلى الجدار المرتفع غير القابل للتسلق بسبب طلائه الأملس، لكنه مثقوب بالعديد من الثغرات الصغيرة.

ويقتررب طابور الباحثين منه، وخلفهم آخرون قادمون من شارع المنازل.

هل لابد من قتالهم؟

ينادى أحدهم عالياً:

- بوجوتا! أين أنت؟

يحكم قبضته على الجاروف أكثر، ويتحرك أسفل المرح باتجاه المنازل ويتقدم مباشرة نحوهم فيتوجهون إليه.

- إذا لمسني أحداً فسوف أقضي عليه، أقسم أنني سأقضي عليه.

يصرخ بها عالياً في وجوههم ويستأنف:

- انتبهوا جيداً، سوف أفعل ما يحلو لي في هذا الوادي، هل تسمعون؟ سوف أفعل ما يحلو لي وأذهب حيث يحلو لي!

يضيقون عليه الحصار أكثر، برغم إنهم يتلمسون طريقهم، إلا أنهم يتحركون بسرعة.

يشبه الأمر كما لو أنهم يلعبون (القطة العمياء) ولكن بالعكس فالكلمة مغمض العينين ما عدا واحد فقط يرى!!

وبصرخ أحدهم: أمسكوه.

يجد نفسه قاب قوسين من الملاحقين فيشعر بضرورة أن يتصرف بحزم.

فيصبح بنبرة كان يريد أن تكون مهددة صارمة لكنها تخرج منكسرة:

- أنتم مجرد عميان، وأنا أرى فاتركوني وشأني!

- بوجوتا! أترك ذلك الجاروف من يدك، وأخرج بعيداً عن العشب.

يأتي الأمر الأخير، في حميمية مهذبة بصورة غريبة تثير عاصفة من الحنق في قلبه.

فيأتي صوته متهدجاً في أنفعال يشبه البكاء:

- بحق السماء، سأقضي عليكم، اتركوني وشأني!

وينطلق راكضاً لا يعرف تحديداً إلى أين يتجه، وينطلق بجوار أقرب الرجال العميان منه؛ ترعبه فكرة أن يضربه الأعمى فيتوقف لحظة ثم ينطلق مبتعداً محاولاً أن يندس من ثغرة ضيقة في صفوفهم القريبة،

بين رجلين منهم، يدرك الرجلان اقتراب خطواته منهما فيندفع كلا منهما نحو الآخر ليسدان الثغرة، ويشب نونيز للأمام، إلا أنه يتأكد من استحالة مروره بينهما.

يطوح بجاروفه في دعر ليسمع صوت ارتطام مكتوم ويشعر بإصطدام الجاروف بجسد لين ثم تنطلق صرخة الأعمى وهو يهوى على الأرض ونونيز يقفز عابراً فوق جسده.

لينطلق مبتعداً عنهم باتجاه شارع المنازل مرة أخرى، والرجال العميان خلفه يلوحون بالعصى والجواريف ويركضون في كل اتجاه يلاحقونه في خطوات سريعة منظمة.

يسمع الخطوات خلفه تقترب ويرى رجلاً طويلاً يندفع للأمام ويستعد للضرب باتجاه صوت نونيز فيفقد أعصابه، ويلقي بجاروفه على خصمه، ثم يستدير لينطلق هارباً وهو يصرخ متفادياً هجوم آخر.

يركض يميناً ويساراً مذعوراً في إنفلات عصبي تام، متفادياً حيث لا حاجة للتفادي، مضطرباً يحاول أن يرى في كل اتجاه في نفس الوقت، يتعثر، وللحظة يسقط على الأرض ليسمعوا صوت سقوطه.

بعيداً جداً في الجدار المحيط يرى فتحه صغيرة تبدو في نظره بوابة الخلاص، فينطلق في اندفاع مستميت ليلبغها، ولا ينظر حتى نحو مطارديه إلى أن يدس جسده عبر الفتحة، ثم بخطوات سريعة متعثرة يعبر الجسر فوق القناة، ليتسلق بعده الصخور ليبعد أكثر، مثيراً فزع حيوانات اللاما التي تقفز مذعورة بعيداً عن ناظره، ليستلقي أخيراً محاولاً استرداد أنفاسه في لهاث متهدج.

وتكون تلك نهاية تمرده البائس.

خارج جدار وادي العميان يستقر دون طعام أو مأوى، ينهكه التفكير في التطور المفاجئ للأحداث، وأثناء تأملاته يدوي في ذهنه المثل القديم مراراً وتكراراً في سخرية مقيته..

«في بلد العميان يصبح الأعور ملكاً».

ينصب أغلب تفكيره حول إيجاد وسيلة لقتال وقهر هؤلاء القوم، لكن يتضح له إنعدام وسيلة فعالة لتحقيق مأربه، فهو لا يمتلك أي سلاح، ومن المستحيل أن يحصل على واحد الآن.

حتى بعيداً عن بوجوتا لم يتسطيع التخلص من داء الفضيلة! فهو برغم كل شيء لا يستطيع أن يتخيل نفسه يهبط إلى الوادي ليغتنال بخسة رجلاً أعمى!

بالقطع لو فعل ذلك، يمكنه بعدها السيطرة عليهم بتهديدهم جميعاً بالإغتيال.

لكنه يصرف الفكرة عن ذهنه وينشغل بتدبير أمر نومه، فلا بد أن ينام! عاجلاً أو آجلاً، كذلك لابد أن يحاول أن يجد بعض الطعام.

يبحث عن طعام بين أشجار الصنوبر، ويحاول أن ينام بين جذوع الصنوبر بينما تتساقط الثلوج طوال الليل.

وفي محاولة بائسة يحاول أن يصطاد لاما بحيلة ما، ربما يضربها بحجر ومن ثم أخيراً، ربما يستطيع أن يأكل بعضاً منها.

لكن اللاما تجفل منه وتراقبه بخوف غريزي بعيونها المرتابة، وتبصق كلما حاول الاقتراب منها.

في اليوم الثاني يتسلل الخوف إلى قلبه، وتغزو جسده رعشة الإنهاك من قلة النوم والأكل وشدة البرد.

وفي النهاية يزحف هابطاً إلى جدار بلد العميان ليحاول عقد إتفاقية معهم.

يزحف بجوار القناة، وبصبح، حتى يخرج له رجلان أعميان من البوابة.

فيقول لهما نونيز:

- لقد كنت مجنونًا.. فقط بسبب كوني حديث التكوين.

يقول أحدهما:

- إن هذا أفضل.

يقول لهما:

- لقد تعقلت الآن، وأنا نادم على ما فعلت.

ثم يبكي فجأة رغباً عنه، من فرط هشاشته وضعفه، فيستقبلا ذلك بإعتباره علامة إيجابية، ويسأله أحدهما:

- هل مازلت تظن إنك قادر على (البصر).

فيقول:

- كلا.. كانت هذه حماقة، فالكلمة ذاتها لا تعني أي شيء.. بل هي أقل من اللا شيء.

فيسأله الآخر:

- وماذا يوجد بالأعلى؟

يجيب نونيز:

- على ارتفاع مقداره عشر مرات من قامة الرجل، يوجد سقف من الصخور فوق العالم، أملس شديد النعومة.

وينفجر في بكاء هستيري مرة أخرى قائلاً:

- قبل أن تسألاني عن شيء آخر، أعطاني بعض الطعام وإلا سأموت.

كان يتوقع منهم عقاباً رهيباً، لكن هؤلاء العميان كانوا على قدر كبير من الرحمة والتسامح وقد اعتبروا ثورته ليست إلا دليلاً إضافياً على بلاهته العامة وبدائية عقله.

فقط جلدوه بالسوط عدة مرات قليلة ثم أوكلوا إليه عمل بدني شاق لا يحتاج أي تفكير، ولم يجد لنفسه طريقة أخرى للعيش، سوى الخضوع التام لأمرهم.

ولبضعة أيام ظل مريضاً، وقد اعتنوا به جيداً في لطف بالغ مما ساهم في تأكيد خضوعه لهم، لكنهم أصرّوا على بقاءه في الظلام، مما زاد من يؤسه بشدة.

وفي مرقده يأتي له فلاسفة عميان ليتحدثوا معه عن هرطقة عقله الضال، ويفندوا بمنتهى العقلانية كافة شكوكه في السقف الصخري التي يغطي كهف الكون، لدرجة أنه شك في أنه قد يكون ضحية نوبة من الهلوسة لأنه لا يستطيع رؤية ما يصفونه بالأعلى.

ويصبح نونيز مواطناً في بلد العميان، ويتحول هؤلاء الناس بالنسبة له من مجرد قوم إلى أفراد معروفة وقريبة منه. بينما يتوارى العالم الخارجي وراء الجبال أكثر وأكثر ليصبح محض خيال.

سيده يعقوب رجل عجوز طيب وهو عم بدرو؛ وأبنته الصغرى المدعوه مدينا سوروته، لم تكن محبوبة في بلد العميان؛ بسبب ملامح وجهها الحادة، المفتقرة للنعومة والانحناءات الملساء التي تجسد فكرة الجمال الأثوي عند العميان.

في بادئ الأمر كان نونيز يراها جميلة، لكنه الآن يراها أجمل مخلوقات الله على الإطلاق.

فجفناها المغلقان لم يكونا محمرين، غائرين كما هو شائع في الوادي، هما فقط مسبلان كما لو أنهما قد ينفتحان في أية لحظة؛ وتكسو جفونها رموش طويلة، وهي من مظاهر القبح بمقاييس العميان.

كذلك فإن صوتها كان قويًا يزعج مسامع شباب الوادي الحساسة؛ لذلك لم يكن لها حبيب.

وتمنى نونيز أن يفوز بها، ليتسقر في هذا الوادي معها في سعادة حتى آخر العمر.

ويظل يراقبها، ويتحين الفرص للقيام بأية خدمة ولو بسيطة لها، وبعد فترة يتأكد أنها لاحظته.

وفي يوم العطلة، يجلس بجوارها في ضوء النجوم الخافت، بينما تصدح الموسيقى العذبة حولهما، يمد يده فوق يدها ويجترأ على أن يمسك بها، وفي رقة بالغة تضغط هي على أنامله.

في يوم آخر وهما جالسين يأكلان في الظلام، يشعر بيدها الرقيقة تبحث عنه، وتصادف أن تتأجج النار في تلك اللحظة ليرى الحنان متجليًا على ملامحها.

ويقرر نونيز أن يفتحها في الأمر.

في يوم آخر يذهب بحثًا عنها ليجدها جالسة تغزل في ضوء قمر ليلة صيفية صافية، تغمرها أشعة القمر الفضية لتجعلها تتألق في جلال.

فيجلس نونيز عند قدميها ويعترف لها بحبه، ويخبرها بمدى روعة ملامحها، يحدثها بصوت عاشق متلهف يفيض بالحنان والإجلال الذي يقارب التقديس.

هي لم تعرف الحب من قبل، وبرغم إنها لم تمنحه أي جواب واضح إلا أن سعادتها بكلماته كانت واضحة عليها.

من ذلك اليوم ونونيز يلتمس أي فرصة ليتحدث إليها.

وبصير الوادي عالمه الوحيد، أما عالم ما وراء الجبال حيث يعيش البشر في ضوء الشمس فيتحول إلى مجرد قصة خيالية سيحكىها لها ذات يوم على سبيل التسلية.

نادراً وعلى استحياء شديد ما كان يتحدث معها عن (البصر).

وتجد فكرة البصر خيال شاعري عذب، وبخالطها شعور بالإنثم وهي تستمع في استمتاع إلى وصفه للنجوم والجبال، وإلى وصفه لجمال وجهها الوضاء النقي.

هي لا تصدقه تماماً، بل هي بالكاد تفهم نصف ما يقول، لكنها تنبهر بالخيال الساحر، مما يترك لدى نونيز انطباعاً بأنها تفهمه جيداً.

وتبدد قوة الحب الرهبة من قلبه وتمنحه الشجاعة ليتجاسر ويطلب يدها من يعقوب وشيوخ القرية.

لكنها تبقى خائفة ومترددة، بعدما أخبرت واحدة من أخواتها الكبار يعقوب بعلاقة الحب الناشئة بينها وبين نونيز.

منذ اللحظة الأولى تنشأ معارضة شديدة لزواج نونيز ومدينا سوروته؛ ليس لأنهم يقدرونها هي ولكن لأنهم يعتبرون نونيز مخلوق أدنى، بدائي، أحمق، عديم الكفاءة دون المستوى المقبول للرجال.

أخواتها يعارضن بشدة وقد اعتبرن أن ذلك يجلب العار عليهن جميعاً؛ ويعقوب العجوز الطيب برغم أنه يحمل في قلبه عاطفة ما نحو خادمه المطيع الأبله، إلا أنه يقول إن هذا الزواج مستحيل.

أما شباب القرية كلهم فقد كانوا غاضبين من فكرة تدنيس السلالة، ويتناول أحدهم أكثر ليشتم نونيز ويعتدي عليه بالضرب، لكن نونيز يبرحه ضرباً وقد وجد لأول مرة ميزة مهمة للبصر. وعند الفجر يعد إنتهاء القتال، لم يجرؤ أحد على التناول على نونيز، برغم إنهم ما يزالون يعتبرون زواجه مستحيلاً.

إن يعقوب يحب ابنته الصغيرة الأثيرة أكثر من أخوتها، ويألمه بشدة بكاءها في حضنه.

فيقول لها مواسياً:

- يا صغيرتي أنت تعلمين أنه أبله. تسيطر على عقله الهلاوس، ولا يستطيع فعل شيء واحد بصورة صحيحة.

فتنتحب مدينا سوروته وتقول بين عبراتها المنسالة:

- أعلم.. لكنه الآن أفضل مما كان، إنه يتحسن مع الوقت، وهو طيب وقوي كذلك.. إنه أقوى وأطيب من أي رجل آخر في العالم يا أبي. وهو يحبني.. و.. أنا.. أنا أحبه كذلك.

ويكاد قلب يعقوب أن ينفطر على حزن ابنته، ومما يزيد من آلامه أنه يحب نونيز ويرى فيه مزايا عديدة، لذلك يذهب لينضم إلى مجلس الشيوخ في غرفة الشورى الخالية من النوافذ، ليتابع مجرى الحديث، وفي الوقت المناسب يتدخل قائلاً:

- إنه يتحسن مع الوقت، وبوما ما هناك احتمال كبير جداً، أن يصير عاقلاً مثلنا.

فيما بعد، أحد الشيوخ وهو كبير الأطباء الذي يمتلك عقلاً حكيماً ومبدعاً للغاية، بعدما يفكر ملياً، يهتدي لفكرة ملهمة تتيح له علاج نونيز. وفي الاجتماع التالي يتقدم الطبيب ليقول:

- لقد فحصت بوجوتا.. وفهمت حالته جيداً، وأعتقد أن علاجه بسيط جداً.

فيقول يعقوب في حماسة:

- هذا ما كنت أتمناه دائماً.

فيقول الطبيب الأعمى:

- إن عقله مصاب.

يتمتم الشيوخ موافقين.

- حسناً، وما مصابه بالتحديد؟

يقول الطبيب مفسراً:

- هذه الأشياء الغريبة التي تسمى عيون، والتي توجد لصنع انخفاض ناعم مريح في الوجه، في حالة بوجوتا هي معتلة بطريقة تؤثر على مخه، فهي متضخمة بشكل كبير، وعليها رموش طويلة، وأجفانه تتحرك باستمرار، وبالتالي فإنها تؤثر بشدة على استقرار المخ مما يجعله في حالة تشتت وهياج مستمر.

يقول يعقوب العجوز موافقاً:

- نعم.. بالطبع

ويكمل الطبيب:

- أعتقد أن بإمكانني القول بمنتهى الثقة، أنه لكي يشفى تمامًا فكل ما نحتاج إليه إجراء عملية جراحية بسيطة جداً، وهي أن نستأصل هذه الأجسام المهيجة.

- وهل سيكون بعدها عاقلاً؟

- سيكون عاقلاً تماماً، ومواطنًا صالحاً من الدرجة الأولى.

فيعقب يعقوب مستبشراً:

- شكرًا للرب على نعمة العلم!

ثم ينطلق فوراً ليزف لنونيز بالخبر السعيد!

لكن أسلوب نونيز البارد المحبط في استقبال الأخبار الجيدة يصدمه مما جعله يقول له:

- من يسمعك تتحدث هكذا يقول إنك لا تريد ابنتي.

أما مدينا سوروته فتنفك في محاولة إقناع نونيز بالأنصياع للجراحين العميان.

فيقول لها:

- أنت لا تريدني أن أفقد نعمة البصر.

تهز رأسها في أسى ولا تجيب.

- إن البصر هو كل عالمي.

تحنى رأسها لأسفل ولا تنطق.

- العالم ملئ بالأشياء الجميلة، العديد من الأشياء الصغيرة الرائعة.. الأزهار، النباتات بين الصخور، انسيابية ولمعان الفراء، السماء العالية والسحب السابحة بها، ألوان الغروب ووميض النجوم.. وكذلك أنت.

يكفيني فقط أن أنظر إليك، أن أرى وجهك المليح الهادئ، أرى شفتيك الرقيقتين، ويديك الجميلتين اللتان أعشق شكلهما حينما تضمينهما معاً... إن عيناى هي ما كل ما أملك، عيناى التي يريد هؤلاء المعاتيه أن يحرموني منهما هي التي تجعلني أسير هواك، وبدلاً من التمتع برؤية وجهك الصّباح، يريدون مني أن أكتفي بأن ألمسك وأسمعك فقط، يريدون أن يدفنوني تحت ذلك السقف الوهمي من الصخور والظلمات، ذلك السقف الرهيب الذي يقتل تحته كل خيال... كلا! أنت بالتأكيد لا تريدني لي ذلك

تقابل سؤاله بصمت مطبق مما يجعل الشك يتسلل إلى قلبه فيصمت هو الآخر حتى تقطع الصمت قائلة في تردد:

-أحياناً أتمنى لو..

تقطع حديثها في ارتباك فيستحثها سائلاً في ترقب: لو ماذا؟

- أتمنى فقط لو أنك لا تقول هذا الكلام.

- أي كلام؟!

تتنهد في استسلام ثم تقول:

- إن خيالك رائع وأنا أحبه كثيراً، لكن الآن...

لا تكمل، فتنتابه رجفة ويسألها في أسى:

الآن ماذا؟!

تلتزم الصمت ويكتسى وجهها بالحنن.

فيسألها مستوثقاً:

- هل تقصدين.. أنت تصدقين أنني سأكون أفضل لو أنني...

تجتاح الأفكار ذهنه كالعواصف ويتملكه السخط، في الواقع هو سخط على المصير المظلم الذي ينقاد إليه.

يخالط سخطه مشاعر بالشفقة نحوها بسبب جهلها بفداحة ما تطلب، ويرى في شحوب وجهها روحها المثقلة بالكثير الذي لا تملك البوح به.

يطوقها بذراعيه ويقبل وجنتها وبحفهما الصمت طويلاً، ثم يقول أخيراً في نبرة حانية: - فقط لو إن هذا ما يرضيك.

تستدير لتضمه إلى صدرها وهي تبكي بحرقة وتقول:

- لو إنك أنت ترضى به، فقط لو إنك ترضى.

تبقى إسبوع واحد على موعد العملية التي سوف تنتشله من البدائية وترقيه من العبودية لتسمو به إلى منزلة المواطن الأعمى!

وطوال الأسبوع لا يغمض جفن لنونيز، وطوال ساعات النهار الدافئة، بينما ينام الجميع قريروا العين، يبقى نونيز جالساً مستغرقاً في التفكير أو هائماً على وجهه بلا اتجاه، يحاول أن يجد حلاً لمأساته، لقد سبق وأعطى موافقته على إجراء العملية، إلا إنه ما زال متحسراً على بصره الذي سيفقده.

وبعد إنقضاء الأعمال في آخر يوم قبل العملية، تشرق الشمس الذهبية فوق القمم البعيدة، ليبدأ آخر يوم له وهو مبصر.

يجد بضع دقائق يقابل فيها مدينا سوروته قبل أن تفارقه للنوم، فيقول مهموماً:

- غداً.. لن أرى ثانيةً.

«حبيب قلبي».. تقولها في تهدج وهي تحتضن يده بين كفيها، ثم تقول مشجعه:

- ستتألم قليلاً.. ولكن سوف تتجاوز هذا الألم.. سوف تتجاوزه سريعاً يا حبيبي من أجلي، إن قلبي وكل حياتي ملك لك، سأعوضك عن ذلك، يا أغلى الناس وأحب الأصوات لقلبي، سأعوضك بعمرى كله.

غارقًا في الأسى على نفسه وعليها، يطوقها بذراعيه ليضمها إليه، ويقبل شفيتها في لوعة، ثم يتأمل وجهها الرقيق للمرة الأخيرة. ويهمس مودعًا هذا المشهد الغالي للأبد ثم يوليها ظهره وينطلق مبتعدًا عنها في صمت.

وصوت خطواته المبتعدة المتناقلة في بطاء يجعلها تنهمر في البكاء.

يتحرك نونيز قاصدًا الإنعزال في مكان ناءٍ تمامًا، حيث المروج الجميلة المزدانة بالورد الأبيض، وبتنوى البقاء هناك حتى تحين ساعة تضحيتها العظمى.

بمجرد أن يصل، يرفع عينيه نحو الأفق، ويخلب لبه بهاء إشراقة الصباح على المنحدرات كأنه ملاك يحتضن الأرض بجناحه الذهبي.

وأمام كل هذه العظمة يبدو هو وحبه وكل هذا العالم الأعمى في الوادي، مجرد حفرة باهتة من الأوهام.

لم يجلس على أحد جوانب المرج كما كان ينوي، بل يمضى قدمًا ويعبر من خلال الجدار العازل ليخرج فوق الصخور، وهو مستمر في تأمل قمم الثلوج المتلألأة بفعل أشعة الشمس.

يتأمل الجمال المطلق، ويسرح بخياله لما وراء الجبال نحو الأشياء بالوراء التي سوف يتخلى عنها للأبد.

يفكر في ذلك العالم الرائع العظيم الذي كان جزءًا منه في السابق، ذلك العالم الذي كان ملكًا له.

يرمق بنظرة بعيدة تلك المنحدرات القصية، والمسافات الشاسعة المتتابعة، يفكر في بوجوتا، موطن الجمال الخلاب المتنوع، بنهارها المبهج، وليلها الساحر، حيث القصور الفارهة والنوافير المبهرة، والتماثيل المتناثرة في الميادين والبيوت المنمقة البيضاء المنتشرة في أنيقة على مسافات متساوية.

يفكر كيف يمكن للمرء في خلال يوم واحد أن يهبط عبر المنحدرات، ليقترّب أكثر فأكثر من شوارعها المزدهمة.

يفكر في رحلة نهرية لبعض أيام تقرب أكثر من بوجوتا العظيمة، ثم إلى العالم الشاسع فيما بعدها، يفكر في المدن والقرى، في الغابات والصحاري، في النهر ومراكب الصيد التي تنشر المياه حولها وهي ترسو في الميناء برفق، يفكر في المد والجذر، في المحيط الشاسع الذي يضم آلاف الجزر، في سريان السفن العملاقة في رحلاتها المتواصلة حول ذلك العالم العظيم، حيث السماء مفتوحة حرة ليست حبيسة الجبال.. ليست مجرد قرص محاصر بالصخور كما يراها المرء هنا، بل تمتد زرقاء مبهرة على مدى الآفاق، وفي الليل تزينها النجوم السابحة في أعماق الفضاء اللانهائي.

يتطلع بنظره متفحصه إلى حجاب الجبال العظيم حول الوادي.

يفكر أنه على سبيل المثال، لو أن شخص ما ذهب هناك، إلى أعلى ذلك الأخدود ثم تسلق بعد ذلك من بين أشجار الصنوبر التي تدور حول الأخدود في تنوء صخري متصاعد نحو الأعالي فقد يستطيع الخروج من تلك الفوهة الرأسية بين الجبال، ثم يعبر بعدها المضيق الجبلي.

وبعد ذلك؟ هناك منحدر شديد من الممكن تجاوزه، ومن ثم ربما يمكن إيجاد مسار للتسلق يقوده إلى حافة الهاوية العظمى الواقعة عند الحافة السفلية للقمة الجليدية للجبل.

ولو كان تسلق تلك الفوهة الرأسية عسيراً، فربما يكون هناك مكان آخر أبعد في اتجاه الشرق من المحتمل أنه يصلح للصعود بصورة أسهل. وبعد؟

سيكون هذا الشخص قد خرج إلى الجليد المتألق بنور الشمس هناك، في منتصف الطريق إلى قمة واحداً من تلك الجبال المهجورة الساحرة.

ينظر نونيز خلفه إلى القرية، ثم يستدير يميناَ وقد حسم أمره في تصميم.
يفكر في مدينا سوروته فيجد صورتها في ذهنه ضئيلة قصية.
يستدير نحو جدار الصخور الجبلي الذي هبط منه إلى هذا الوادي ذات يوم، ثم يبدأ تسلقه في حذر بالغ.
يأتى عليه الغروب وقد كف عن التسلق أبعد، فقد صار بالفعل بعيداً جداً في الأعلى.
صحيح إن ملابسه قد اهترأت، وإن كل أطرافه مزقتها الجروح، وقد انتشرت الكدمات في مواضع متفرقة من جسده المكدود.
إلا أنه يستلقي سعيداً كما لو أنه في ينام في مملكته الخاصة. وتعلو وجهه ابتسامة واسعة.
ومن حيث مرقدته بجوار فوهة الفجوة الجبلية يبدو له الوادي داخل الحفرة بالأسفل على بعد ميل، باهتاً متوارياً وسط الغيوم والظلال، برغم إن قمم الجبال حوله لا تزال مضيئة بأشعة الشمس الخابية.
أما التفاصيل الصغيرة للصخور القريبة منه فهي تغرق في جمال أخذ، تتلأأ عليها عروق من المعدن الأخضر لتزين سطحها الرمادي البللوري ليتألق بالوميض هنا وهناك.
وللحظات، تتراقص أوراق النباتات القريبة من وجهه في وميض برتقالي مبرزاً تفاصيلها الدقيقة.
بينما في أعماق الأخدود الجبلي تتراقص الظلال الغامضة في زرقة غامقة تتحول تدريجياً إلى الأرجواني، توطأة لتتحول بعدها للسواد الداكن، وفوق رأسه تمتد السماء الشاسعة بفضاءها اللامتناهي.
لكنه لا يهتم بصورة هذا الجمال المحيط أكثر من ذلك، فيرقد مكدوداً في انهاك ليسترخي في سكون.
ويخبو توهج الشفق، لتسود ظلمة الليل الحالكة وهو وما يزال مستلقياً في سلام تحت وميض النجوم الساطعة، مبتسماً في منتهى الرضا لنجاحه في الفرار ببصره من بلد العميان التي أراد أن يكون ملكاً لها!

منذ أقل من ثلاثة أشهر، في أمسية خاصة، حكى لي ليونيل والاس هذه القصة عن باب في جدار. وقد اعتقدت وقتها إنها قصة حقيقة من فرط انشغاله بها.

أخبرني بها بصورة بسيطة ومباشرة فلم يسعني إلا أن اقتصت بها وصدقته.

لكن في الصباح التالي، استيقظت في منزلي بشعور مختلف، أفكر في ما أخبرني به وأنا ممدد في فراشي، بعيداً عن تأثير صوته الجاد المتمهل، وسحر الظلال التي يصنعها مصباح المائدة، وبريق أدوات الطعام الفضية الجذاب وأطباق الحلوى وكؤوس المائدة بينما حيث تشاركنا العشاء، وذلك الجو العام الموحى بالغموض الذي يغلف جلستنا، ليصنع لنا عالماً خاصاً مشرقاً منعزلاً عن واقع الحياة اليومية.

فأجد أن كل ما قاله في الواقع غير قابل للتصديق. لقد كان يخدعني، وقد نجح في خداعي جيداً! هو بالذات دوناً عن كل الناس لم أكن أتوقع منه شئ كهذا أبداً.

بينما أجلس على السرير أرشف شاي الصباح، بعدها، أضبط نفسي أحاول حساب معيار الحقيقة التي حيرتني في ذكرياته المستحيلة تلك، بافتراض أن هذه الذكريات تطرح/ تقدم/ تشرح -لا أعلم بدقة التعبير المناسب- خبرات من المستحيل معرفتها بطريقة أخرى.

حسناً، لن ألجأ للشرح الآن، فقد تجاوزت شكوكي الداخلية، إنني أصدق الآن، كما صدقت حينما صارحتي أول مرة، أنه والاس قد بذل أفضل ما في وسعه ليكشف لي حقيقة أسراره الكاملة.

لكن سواء أنه نفسه رأي، أو أنه تخيل فقط أنه رأي، سواء أنه قد أكتسب موهبة لا تقدر بثمن، أو كان ضحية أضغاث أحلام، فأنا لا أستطيع التظاهر بالتخمين.

حتى وقائع موته، التي قصت على شكوكي للأبد، لم تلق بأي ضوء على ما حدث.

عند هذا الحد يجب أن أترك الحكم للقارئ نفسه.

لقد نسيت الآن ما التعليق أو النقد الذي قلته ليستفز رجلاً كتومًا مثله ويجعله يأتمني على سره.

أظن أنه كان يدافع عن نفسه ضد تهمة التخاذل وعدم تحمل المسؤولية التي اتهمته بها فيما يتعلق بالحراك الجماهيري الكبير، حيث خيب أمني في عدم مشاركته. مما جعله يتهور فجأة ليقول لي أنه منهمك في..

صمت هنيهة ثم استأنف قائلاً:

- أعلم.. أنني كنت مقصراً.. في الحقيقة .. الموضوع ليس له علاقة بالأشباح أو الأرواح .. لكن.. إنه شيء غير منطقي لا أعرف كيف أخبرك عنه..

ريدموند، أنا مطارده..

يطاردني شيء ما.. في الواقع هو شيء يطفئ بداخلي وهج الرغبة تجاه كل الأشياء..

يكف عن الحديث، يغلبه ذلك الحياء الإنجليزي الذي كثيراً ما يسيطر علينا حين نود الحديث عن الأشياء المثيرة أو المرعبة أو الممتعة.

ثم يستأنف:

- أنت كنت في سانت أثيلستان خلال كل ذلك.

وللحظة بدا لي ذلك بلا أي صلة بالموضوع نهائياً.

«حسناً.. يقطع كلامه ثم في تردد كبير في البداية، يبدأ في الحديث عن ذلك الشيء الذي يخفيه في صدره، عن الذكرى المشبعة بالجمال والسعادة الساحرة التي ملأت قلبه بشغف لا متناهي، لتجعل كل مشاهد الحياة اليومية ومشاعلها تبدو باهتة ومملة فارغة في عينيه.

الآن وقد كونت فكرة عن ذلك، بدا هذا مرسومًا على وجهه بمنهى الوضوح.

إن لدي صورة فوتوغرافية تظهر فيها بقوة نظرته اللامبالية المنفصلة عن العالم، ذكرتني بما قالته عنه امرأة ما ذات مرة.. امرأة أحبته بشدة، فقد قالت: «إنه فجأة.. يفقد الاهتمام بكل شيء. ينساک وجودك تمامًا.. لا يشعر بأي شيء حتى لو تلقى صفعًا على وجهه».

لكنه لم يكن دائماً فاقداً للشغف، كان والاس عندما يركز اهتمامه تجاه شيء ما فإنه ينجح فيه ويتفوق، مسيرته المهنية الحافلة بالنجاحات خير دليل، منذ زمن بعيد وهو يتفوق على كل شيء، وقد ارتقى في حياته المهنية وقطع فيها شوطاً طويلاً لم استطع مجاراته قط.

كان لم يبلغ الأربعين بعد، ودائماً ما كانوا يقولون عنه، إنه كان سيشغل منصباً هاماً بل وربما كان سيكون وزيراً لو أنه ظل على قيد الحياة.

في المدرسة كان دائم التفوق علىّ دون أي جهد.. كما لو أن تفوقه أمر طبيعي، كنا زميلي دراسة طوال فترة المدرسة وحتى في كلية سانت أثيلستان في كينسينغتون الغربية، وطوال الوقت كان متفوقاً عني في تقديراته المدرسية وحصوله على المنح الدراسية ومستواه التعليمي المبهر، ومع ذلك أعتقد أنني حققت معدل نجاح معقول.

وفي المدرسة سمعت عن الباب في الجدار لأول مرة، ولم أسمع عنه ثانية سوى قبل موته بشهر واحد فقط.

بالنسبة له كان الباب في الجدار باباً حقيقياً يقود من خلال جدار حقيقي إلى حقائق سرمدية.

الآن أنا متيقن من هذا تمامًا.

لقد ظهر في حياته مبكراً، عندما كانا تلميذين صغيرين ربما في الصف الخامس أو السادس، أتذكر كيف جلس أمامي يدلي باعترافه لي في هدوء ورزانة، يحاول أن يستنتج تاريخ الحدث بدقة ويقول :

- جدار أبيض ناصع تزحف فوقه أوراق نبات متسلق، حمراء اللون، وكل الأوراق متماثلة في الحجم واللون، تلمع ببريق أخاذ في أشعة الشمس الذهبية.

كان هذا الأنطباع في ذاكرتي بشكل ما، رغم أنني لا أتذكر بوضوح كيف ذلك، وكانت هناك أوراق شجرة الكستناء الهندي فوق الرصيف النظيف خارج الباب الأخضر.

كانت أوراق خضراء مصفرة، ليست داكنة أو متسخة؛ لذا لا بد أنها سقطت حديثاً، هذا يعني إنه بالتأكيد كان شهر أكتوبر، فأنا أبحث عن أوراق الكستناء الهندي كل عام، وأعرف ذلك.

وإذا كنت محقاً في حساباتي، فلا بد إن عمري وقتها كان خمس سنوات وأربعة أشهر بالضبط.

قال أنه كان في الواقع طفلاً سابق سنه بكثير.. لقد تعلم الكلام في سن مبكرة عن العادي، وكان عاقلاً رزينا و«دقة قديمة» كما كان يقول الناس عنه.

وقد بلغ وهو لا يزال في الخامسة مهارات معرفية لا يدركها معظم الأطفال إلا في سن السابعة أو الثامنة.

لقد ماتت أمه وهو بعد في الثانية من عمره، وتولت رعايته مربية أطفال متسلطة عديمة الكفاءة، وكان أبوه محامياً صارماً كثير الإنشغال، لا يمنحه إلا النذر اليسير من اهتمامه، ويرهقه دائماً بالإنجازات العظيمة التي ينتظرها منه.

وبالرغم من كل تفوقه الدراسي إلا أنه كان يري حياته كئيبة وباهتة على ما أعتقد.

ذات يوم خرج مبتعداً، لم يستطع تذكر السبب الذي دفعه للفرار من منزله على وجه التحديد، ولا المسار الذي قطعه بين شوارع كينسغتون الغربية، كل ذلك توارى بين ضبابية الذاكرة،

لكن الجدار الأبيض والباب الأخضر برزا بمنتهى الوضوح في ذاكرته.

وكما بقيت ذكرى محاولة هروبه الطفولية تلك بداخله، بقيت ذكرى المشاعر التي اجتاحت قلبه الغض لدي رؤية لذلك الباب لأول مرة، الإفتتان، الرغبة الملحة في الإقتراب منه وفتحه والدخول منه، وفي نفس الوقت القناعة الراسخة بأن الانسياق لهذه الرغبة سلوك خاطئ، وحماقة.

وأصر على نحو مثير للفضول أنه علم منذ الوهلة الأولى - ما لم تخنه الذاكرة- أن الباب لم يكن موصداً، وأنه يستطيع عبوره إذا اختار ذلك.

أرى بعين الخيال ذلك الطفل الصغير، وعقله بين طرد وجذب، وأيضاً كان واضحاً جداً في ذهنه بدون حاجة إلى تفسير، أن أباه سيفضب بشدة إذا عبر خلال ذلك الباب.

وصف لي والاس هذه الحظات من الحيرة بمنتهى التفصيل، ذهب مبتعداً عن الباب مباشرة، ومن ثم، في محاولة طفولية راح يتجول بمحاذاة الجدار وهو يطلق من بين شفثيه صفيراً.

يتذكر أن هناك عددًا من المحلات الوضيعة المتسخة، وتحديدًا محل سباكة ودهانات، به أنابيب خزفية متربة ومبعثرة، ألواح من الصاج، صنادير، كتالوجات لورق الحائط، وعلب طلاء.

وقف يتظاهر بفحص هذه الأشياء، بينما قلبه معلقاً بذلك الباب الأخضر.

قال إنه بعد ذلك، اجتاحته عاصفة من المشاعر، فركض نحو الباب قبل أن يستحوذ عليه التردد مرة أخرى، اندفع بذراعين ممدوين ليدفع الباب الأخضر ويعبره تاركاً إلياه يرتد لينغلق خلفه. وفي لحظة واحدة كان وسط الحديقة التي ظلت تطارده طوال حياته.

كان عسيراً على والاس أن ينقل لي إحساسه الكامل بهذه الحديقة التي دخلها.

كان هناك شيء في هوائها باعثاً للبهجة، يمنح المرء إحساساً بالخفة والراحة والسعادة البالغة؛ وشيء ما في منظرها يجعل كل ألوانها نقية، مشرقة، براقية.

وفور دخولها كان في ذروة السعادة وهي لا يصادفها المرء إلا في لحظات نادرة، وخصوصاً إذا كان هذا المرء طفلاً مسروراً فإنه يشعر بأنه أسعد مخلوق في العالم ويرى كل شيء في الوجود جميلاً.

تأمل والاس قليلاً قبل أن يستأنف الحكى، وفي نبرة مغايرة تحمل تردد بالغ من رجل يصمت عند ذكر الأشياء اللامعقولة يكمل:

- هل تصدق.. لقد كان هناك فهدان ضخمان.. نعم، فهدان مرقطان، لكنني لم أكن خائفاً، كان هناك ممر عريض ممتد له حدود من الرخام وأحواض من الأزهار على جانبيه، وكان هذين الوحشين يلعبان هناك

بكرة، ونظر أحدهما بإتجاهي، مدفوعًا بالفضول على ما بدا، ثم جاء نحوي مباشرة، وحك أذنه المستديرة الناعمة بلطف في يدي الممدودة إليه وأطلق قرقرة.

أؤكد لك، إنها كانت حديقة مسجورة. أما حجمها؟ يا لحجمها! كانت تمتد شاسعة لسمافة بعيدة في كل الاتجاهات، أعتقد أنه كان بها تلالًا بعيدة في الأفق، الله وحده يعلم أين ذهبت فجأة كينسنتون الغربية، وبطريقة ما كان الأمر يشبه العودة إلى البيت.

أتعرف، في ذات اللحظة التي ارتد فيها الباب خلفي، نسيت الطريق بأوراق الكستناء المتساقطة، بسيارات الأجرة وعربات النقل، نسيت ضغط العودة إلى الإلتزام وطاعة أوامر المنزل، نسيت كل التردد والخوف، نسيت التعقل، نسيت صميم كل حقائق الحياة. تحولت في لحظة واحدة إلى طفلًا غارقًا في سعادة مذهلة في عالم آخر.

كان عالمًا بخواص مختلفة، أكثر دفءً، ضوءه أشد نفاذًا، يبعث هواءه ببهجة بالغة، وخيوط من أشعة شمس تنعكس على السحب في سمائه الصافية.

وأمامي يمتد هذا الممر الطويل الرحب، وعلى جانبيه العشب الأخضر النقي خاليًا من الأعشاب طفيلية، وغني بالأزهار النامية، وهذان الفهدان الضخمان، اللذان ربت بيدي الصغيرة بلا خوف على فرائهما الناعم، وداعبت أذانهما المستديرة ورأسيهما خلف أذانيهما، ولعبت معهما، وكان الأمر كما لو أنهما يرحبان بي في بيتي.

كان هناك وعي قاطع في عقلي أنني فعلاً عدت إلى بيتي.

حينئذٍ ظهرت فتاة جميلة في الطريق قادمة نحوي، مبتسمة، ثم لي: «حسنًا؟» وحملتني، وقبلتني، ثم أنزلتني، وقادتني من يدي. لم يكن لدي أي شعور بالإندهاش، فقط انطباع عام ممتع، كأنني أستعيد ذكريات سعيدة نسيتها بشكل ما.

أتذكر إنه كان هناك مدرجات عريض ظهرت أمامنا من بين حزم غصون النبات، خطينا فوقها ثم عبرنا إلى طريق كبير بين أشجار ورافة متشابكة الأغصان بامتداد هذا الطريق.

أتعرف، بين سيقان نباتات شقائق النعمان كانت هناك قواعد رخامية مثبت فوقها تماثيل مهيبة، وحولها العديد من الحمام الأبيض.. حمامات أليفة وودود للغاية.

طوال هذا الطريق قادتني صديقتي وهي تخفض نظرها إلي، أتذكر تقاطيعا الأنيفة، ذقنها الرقيقة، ملامح وجهها المليح، وهي تطرح على أسئلة بصوت ناعم عذب، وتخبرني عن أشياء، أشياء محبة أعرفها، رغم أنني لم أكن قط قادرًا على تذكرها.

وفي تلك اللحظة نزل نسناس لطيف من على شجرة بجوارنا، يلمع شعره البني المحمر في نضارة، وينظر لي بعينين عسليتين جانيتين، ليجرى بجواري وهو ينظر لأعلى نحوي بابتسامة عريضة، وبعد قليل قفز ليستقر فوق كتفي، ثم أكلنا طريقنا في سرور بالغ.

سكت عن الكلام فقلت استحثه على المواصلة:

- أكمل.

فقال:

- أتذكر أشياء قليلة. لقد مررنا بجوار رجل عجوز غارقًا في التأمل بين شجر الغار، أتذكر مكان مبهج تنتشر فيه البغاوات، ثم عبرنا من خلال رواق ظليل بين صفين من الأعمدة إلى قصر رحب أنيق، ملي بالنافورات الممتعة، والعديد من الأشياء الجميلة، ملئ بكل ما يشتهي القلب. وبه الكثير من الأشياء والعديد من الأشخاص، بعضهم كان ظاهرًا بوضوح وبعضهم كان متوار قليلًا لا أتبينه بدقة، لكن كل هؤلاء

الأشخاص كانوا طبيين وظرفاء. بطريقة ما ولا أعرف كيف كان لدي قناعة أنهم طبيون معي، مسرورون بوجودي بينهم، وكانت السعادة تغمرني بسبب تلويحهم لي، ومصافحتهم لي، بترحيبهم بي، بنظرات الحب المطلقة من عيونهم.

صمت هنيهة ثم أضاف:

- نعم، لقد وجدت هناك رفاق للعب، كان هذا كثيرًا عليّ؛ لأنني كنت طفلًا وحيدًا، وقد لعبنا ألعابًا ممتعة في الفناء المغطى بالعشب حيث كان هناك قرص لساعة شمسية مزدانًا بالزهور. لقد لعبوا معي كشخص محبوب ومرغوب فيه.

لكن من الغريب جدًا أن هناك فجوة في ذاكرتي. فأنا لا أتذكر الألعاب التي لعبناها. ولم أتذكر قط. حتى فيما بعد، وأنا لازلت طفلًا كنت أجلس لساعات طويلة أبكي وأنا أحاول أن أتذكر تلك الألعاب الممتعة، تمنيت أن ألعبها كلها مرة أخرى وحدي في حجرتي لكن كل ما كنت أذكره هو مدي السعادة التي شعرت بها، وأتذكر رفيقين حبيبين كانا يلعبان معي معي معظم الوقت.

ثم أنت بعد ذلك امرأة كئيبة، قاتمة ذات وجه شاحب وقور، وفي عيونها نظرة غامضة، امرأة كئيبة ترتدي ثوبًا طويلًا ناعمًا أرجواني اللون، وتحمل في يدها كتابًا، أشارت لي ثم وأخذتني معها إلى بهو فوق، ورغم أن رفاقي في اللعب كانوا متذمرين من ذهابي، وقد توقفوا عن لعبهم وأخذوا ينظرون إلي وهي تجرني بعيدًا، وهم يصيحون « عد إلينا بسرعة».

فنظرت إلى وجهها، لكنها لم تعرهم انتباهًا على الإطلاق. كان شكلها رزينًا مهذبًا.

أقتادتني إلى مقعد في البهو لتجلس عليه، ولكنني بقيت واقفًا بجوارها أتطلع إلى الكتاب المستقر بين يديها وقد أراحته على ركبتيها.

فتحت الكتاب وأشارت إلى صفحاته، فنظرْتُ إليها وأصابني الدهول، لقد رأيت نفسي في الصفحات الحية لذلك الكتاب؛ كانت قصة عني، وبها كل ما حدث لي منذ ولادتي.

«كان ذلك مذهشًا؛ لأن صفحات ذلك الكتاب لم تكن مجرد صورًا، هل تفهمني، لقد كانت صوراً حية.

ثم توقف والاس وهو ينظر إليّ بريبة فقلت:

- أفهمك بالطبع.. أكمل.

- لقد كانت تنبض بالحياة بالفعل؛ الأشخاص يتحركون بها والأشياء تظهر وتختفي في الصفحات؛ رأيت أُمي الحبيبة، التي كدت أنسى شكلها، وأبي، الجاد الصارم، والخدم، والمربية، وكل الأشياء المألوفة في منزلي. ثم الباب الخارجي والشوارع المزدهمة، والسيارات المنطلقة جيئة وذهابًا.

نظرت مذهولاً للكتاب ثم نظرت بشك إلى وجه المرأة وهي تفر في صفحات هذا الكتاب، وأنا أرى فيه تفاصيل أكثر وأكثر، وأخيرًا رأيت نفسي وأنا أحوم مترددًا حول الباب الأخضر في السور الأبيض الطويل، وشعرت مرة أخرى بذات الخوف والنزاع في قلبي.

ثم صرخت «التالي» ومدت يدي أحاول تقليب الصفحة، لكن يد المرأة الوقورة منعتني.

لكنني أصريت وقاومت يدها في رفق وأنا أجذب أصابعها بكل قوتي الطفولية، حتى أذعنت لرغبتني وقلبت الصفحة بينما هي تحني لتظللني بجسدها وتلمس جبينني.

لكن الصفحة لم تظهر الحديقة المسحورة، ولا الفهدين، ولا الفتاة التي سحبتني من يدي، ولا حتى رفاق اللعب الذين تدمروا حينما تركتهم.

بل أظهرت الصفحة شارعًا ضبابياً طويلاً في كينسينغتون الغربية، في تلك الساعة الباردة من عصر اليوم قبل إيقاد مصابيح الشارع، وكنت هناك، طفلاً صغيراً بانئسا، أبكي عالياً، وأحاول أن أتمالك نفسي، كنت أبكي لأنني لم أستطع العودة لرفاق اللعب الذين صاحوا وأنا أتركهم «عد إلينا بسرعة».

وفجأة أدركت أنني هناك، لم تكن هذه صفحة في الكتاب، بل كان الواقع المرير، ذلك المكان المسحور واليد الحازمة القابضة على يدي فوق ركبة المرأة الوقورة أختفوا.. لم أدري كيف؟!

تلثم مرة أخرى، وبقي بعض الوقت، يحدق في نار المدفأة، ثم تتمم قائلاً:

- يا لها من عودة مريرة.

بعد دقيقة صمت أو نحو ذلك نطقت قائلاً له:

- وبعد؟!

- كنت طفلاً بانئسا وعدت مرة أخرى لهذا العالم الكئيب! بعدما استوعبت ما حدث لي، وقد استولى على حزناً لا ينتهي، لازلت أذكر الخجل والمذلة التي شعرت بها وأنا أصرخ باكياً وسط الشارع وعودتي المخزية إلى منزلي، أذكر ذلك العجوز الطيب ذو الوجه الحنون بنظارتة الذهبية وهو يتحدث إلى بعدما وكزني بطرف مظلته لأتلف إليه.

قال في عطف :

- صغيري المسكين.. هل أنت تائه؟

وأنا مجرد طفل في الخامسة! وحيداً في وسط لندن، لقد استدعى شرطي قريب واحتشد الناس من حولي يسألونني عن بيتي، ثم يقتادونني جميعاً، وأنا أتحب وقد تجلى الخوف على ملامحي طوال الطريق من الحديقة المسحورة إلى عتبة بيت أبي.

ذلك كل ما أستطيع تذكره عن تلك الحديقة.. الحديقة التي ما زالت تطاردني، بالتأكيد، لا أستطيع أن أعبر بدقة عن ذكرياتي الضبابية حول هذه التجربة الخيالية التي تعارض تماماً كل ما هو تقليدي ومألوف لدي الناس.

لكن هذا ما حدث، ربما كنت أحلم لكنني واثق أنه كان حلماً جلياً كوضوح النهار.

بالطبع تلا ذلك استجواب رهيب من أبي وعمتي، ومرييتي، من كل شخص في الواقع.

حاولت إخبارهم بما حدث إلا أنني تلقيت أول صفة من أبي جراء ما أقوله من أكاذيب، حاولت أن أخبر عمتي بعدها إلا إنها عنفتني بشدة بسبب إصراري المقيت على الكذب. وهكذا امتنع كل شخص عن الاستماع لي، ولم يكن أحداً يطبق أية كلمة حول ذلك الموضوع.

وصادروا كل القصص الخيالية التي كنت أقرأها بداعي إنني «مفرط الخيال» بالفعل، فعلوا ذلك! إن أبي يؤمن بالوسائل العتيقة في التربية .. وهكذا انقلبت قصتي عليّ.

وفي الليل كنت أهمس بقصتي لوسادتي، وسادتي التي كانت تبيلها دموعي كل ليلة.

وفي صلاتي كنت أدهو الله من صميم قلبي أن يعيدني إلى الحديقة.

وكنت أحلم كثيراً بالحديقة. ربما أكون قد أضفت إليها بعض التفاصيل، أرربما أكون قد غيرتها، لا أعلم بالتحديد.

وكما ترى فإن هذا مجرد محاولة لإعادة بناء صورة مفهومة من شظايا ذكري قديمة جداً.

هناك فجوة بين تلك التجربة وبين باقي ذكريات طفولتي بعدها، حتى أيقنت مع الوقت أنه من المستحيل أن أتحدث عن هذا الفصل من ذكرياتي مرة أخرى.

فسألته السؤال المنطقي الوحيد.

فأجابني:

- كلا.. لا أتذكر أنني حاولت البحث عن طريق العودة إلى الحديقة في تلك طفولتي المبكرة..

قد يبدو هذا غريبًا الآن، لكنني أعتقد أنه قد فرضت علي وقتها رقابة بعد تلك المصيبة التي أرتكبتها لمنعي من الضياع مرة أخرى. بالفعل، لم أحاول العثور على الحديقة مرة أخرى حتى عرفتني. وأعتقد أنه كانت هناك فترة نسيت فيها الحديقة تمامًا.. ربما حتى بلغت الثامنة أو التاسعة من العمر.

هل تتذكرني حينما كنت طفلًا في سانت أثيلستان؟

- أجل.

- هل صدر مني أية بادرة توحى بأن لدي حلمًا سرًا؟!

٢

نظر بابتسامة مفاجئة وقال:

- هل لعبت معي لعبة الممر الشمال الغربي قط؟ لا، أنت لم ترجع معي من المدرسة أي مرة.

كانت اللعبة نوعًا من الألعاب التي يتكرها كل طفل ذي خيال خصب كل اليوم، وفكرتها كانت في اكتشاف ممر الشمال الغربي إلى المدرسة.

إن الطريق إلى المدرسة كان سهلاً أكثر من اللازم، واللعبة عبارة عن العثور على طريق ما أكثر صعوبة، حيث تبدأ مبكرًا بعشر دقائق في السير باتجاه ما غير مألوف، وتحاول ألا تضل طريقك من خلال الشوارع التي لا تعرفها كي تصل إلى هدفك في النهاية.

يومًا ما كنت ضللت السبيل في الشوارع الشعبية المتداخلة للجانب الآخر من حي كاميدين هيل، وبدأت أفكر لوهلة أن اللعبة ستقلب لمشكلة وأنني سأناخر على المدرسة، كنت أجرى جزءًا في شارعًا إلا أنني وجدت في نهايته زقاقًا ضيقًا، فتجدد الأمل بداخلي وأنا أعبره لأجتاز صقًا من الدكاكين الصغيرة البائسة والتي لسبب غير مفهوم كانت مألوفة لي، ثم لشدة العجب! وجدت السور الأبيض أمامي والباب الأخضر الحبيب الذي يؤدي إلى الحديقة المسحورة!

نزل على الأمر كالصاعقة، إدًا.. بعد كل شيء.. تلك الحديقة.. تلك الحديقة الرائعة.. لم تكن مجرد حلم!

أفترض أن تجربتي الثانية مع الباب الأخضر كان علامة فارقة بين الحياة المشحونة لتلميذ مجتهد وبين الفراغ المطلق الطفل لا يشغله شيء، على أية حال ففي هذه المرة الثانية لم أفكر لحظة في الذهاب إلى الداخل على الفور. وذلك لسبب واحد، فقد كان ذهني مشغولًا بفكرة الوصول إلى المدرسة في موعدها دون أي تأخير، بالطبع أنتابنتي رغبة ملحة في عبور الباب، أتذكر إنني فكرت وقتها في هذا الباب كعقبة عثرة فيريقي إلى المدرسة، بالتأكيد هذا ما دار بذهني وقتها، فأكملت بد أنني شعرت بالتأكد ببعض الرغبة القليلة أن أحاول عبور الباب على الأقل.. نعم، لا بد أنني شعرت بذلك..

لكن يبدو أنني أتذكر الانجذاب إلى الباب أساسًا كعقبة أخرى أمام تصميمي القاهر على الوصول إلى المدرسة. كنت مهتمًا في الحال بهذا الاكتشاف، بالتأكيد تقدمت في طريقي وعقلي مشغول بهذه الفكرة، أخرجت ساعتني من جيبي بسرعة، ووجدت أنه ليس أمامس سوى عشر دقائق قبل موعد

المدرسة، ومن ثم هبطت مسرعاً على الطريق المنحدر لأخرج منه إلى الشوارع التي أعرفها ومنها إلى المدرسة، لأصل إليها لاهثاً، منقطع الأنفاس، غارقاً في العرق، لكنني وصلت في الميعاد بالضبط.

أتذكر أنني علقت معطفي وقبعتي لكنني لم أعد بهما، لقد ذهبت بهما وتركتهما، هناك.

موقف غريب أليس كذلك؟!

بالتأكيد، لم أعلم آنذاك أن ذلك الباب لن يكون موجوداً دائماً، إن التلاميذ خيالهم محدود برغم كل شيء، أفترض أنني فكرت كم هو مبهج بشكل كبير أن أجده هناك، أن أجد طريق العودة إليه، لكن المدرسة كانت يشدني إليها.

أظن أنني كنت مرتبكاً ذلك الصباح، أتذكر رد فعل رفقاء اللعب الغرباء، الودودين، الغريب أنه لم يكن لدي أدنى شك بأنهم سيكونون مسرورين برؤيتي.. نعم، لا بد أنني فكرت في الحديقة ذلك الصباح فقط بوصفها واحدة من الأماكن الممتعة التي يلجأ إليها الإنسان في فترات الراحة بين واجبات الدراسة المجهد.

لم أستطيع العودة للباب ذلك اليوم مطلقاً، واليوم التالي كان نصف يوم، وذلك كان حدث ذو أهمية عندي، أضف إلى ذلك حالة التجاهل التي فرصتها على نفسي والتي منحتني هامش من الوقت كافياً للانعطاف والعودة لطريق المدرسة، كل هذا.. لا أعرف، كل هذا جعل الحديقة المسحورة في ذلك الوقت تسيطر بشدة على ذهني لدرجة لم أعد معها كتمان الأمر أكثر من ذلك.

لذلك قد أخبرت ذلك الفتى زميلنا - لا أذكر اسمه - ذلك الذي كان يشبه النمس وكنا نطلق عليه (المسطول).

قلت: هوبكينز؟!

- هوبكينز.. نعم، لم أكن أنوي إخباره أبداً، كنت واثقاً من أن أخباره بسري ليس من الصواب بأي حال من الأحوال، لكنني فعلت.

كان معتاداً على السير معي جزءاً من طريق عودتي للمنزل؛ وكان ثثاراً، ولو لم تتحدث عن الحديقة المسحورة كنا سنتحدث عن شيء آخر، لكن التفكير في أي موضوع آخر كان شيئاً لا يطاق بالنسبة لي، لذا فقد أنفرط لساني.

- حسناً، لقد أفشى سري، وفي اليوم التالي في (فسحة) المدرسة وجدت نفسي محاطاً بنصف دسنة من التلاميذ الأكبر، يملكهم الفضول وبعض الغيرة، ييغون سماع المزيد عن الحديقة المسحورة، كان من بينهم ذلك الضخم فاوست، هل تذكره؟ وكارنابي ومورلي رينولدز، هل كنت معهم وقتها؟

لا.. بالتأكيد كنت سأذكر إذا كنت معهم.

إن الطفل مخلوق معقد المشاعر، لذلك بالرغم من اشمئزازي السري من نفسي، إلا أنني كنت مزهواً بنيل انتباه هؤلاء الزملاء الأكبر مني، أتذكر تحديداً لحظة السرور التي انتابتني بسبب تعليق كروشو، هل تذكر كروشو الأب، ابن الملحن كروشو؟ لقد قال أنها أفضل كذبة قد سمعها في حياته.

لكن في نفس الوقت كان هناك شعور مؤلم بالخزي ينتاب قلبي، لشعوري بأنني أفشيت سرّاً مقدساً.

وذلك البهيمة فاوست أطلق نكتة بذئنة عن فتاة الحديقة.

غرق صوت والاس في تلك الذكرى المهينة ثم قال:

تظاهرت بأنني لم أسمع شيئاً.. ولكن كارنابي نعتني بالكاذب الصغير وتشاجر معي عندما أصريت على أن الحديقة حقيقية. وإنني أعرف مكان الباب الأخضر، وأستطيع قيادتهم جميعاً إلى هناك في عشر دقائق.

وبصورة مهينة جداً قال كارنابي بأنه يجب عليّ ذلك.. وأن أكون على قدر كلامي وإلا فإنني سأرى الويل.

هل لوى كارنابي ذراعك من قبل؟! لو كان فعلها فأنتك ستتفهم موقعي وقتها. فأقسمت له أن قصتي صحيحة.

لم يكن في المدرسة كلها أحداً بجروء على إنقاذ طفل صغير من قبضة كارنابي، رغم أن كروشو حاول أن يقول شيئاً ما يهدأه إلا إن كارنابي كان مستمتعاً بلبسته، زاد إنفعالي واحمّرت أذنيّ، وأصابني الخوف، وقد فعلت ما يفعله أي طفل مذعور بالضبط، وبدلاً من أن أنطلق بمنفردتي إلى حديقتي المسحورة، انطلقت في الطريق إليها محتقن الوجه، محمر الأذنين، مدمع العينين، تحترق روحي من فرط الألم والمهانة، تحت تهديد زمرة من طلاب المدرسة الأوغاد الفصوليين، المستهزؤون بي.

بالطبع لم نجد السور الأبيض والبوابة الخضراء أبداً

- هل تعني أنك..؟

- كلا لم أضللهم بل أعني أنني لم أستطع بالفعل العثور عليه، كنت أتمنى أن أجده لكنني لم أستطيع.

وفيما بعد عندما ذهبت منفرداً لم أستطع العثور عليه أيضاً، لم أجده قط، الظاهر أنني ظللت أبحث عنه دائماً طوال أيام دراستي، لكنني لم أجده أبداً.

- هل آذوك هؤلاء الطلاب وقتها؟

- بطريقة وحشية..

لעقد عقد لي كارنابي مجلس تأديبي جزاء كذبي الغاشم.. أتذكر جيداً كيف تسللت إلى حجرتي بالمنزل لأخفي علامات التورم عن وجهي، لكن عندما كنت أبكي ليلتها في فراشي وحيداً لم يكن بكائي بسبب كارنابي، بل بسبب الحديقة، أبكي بسبب آمال لقضاء عصر يوم جميل كما حدث، أبكي بسبب المرأة الفتاة الحانية الجميلة ورفقاء اللعب المنتظرين، والألعاب التي تمنيت أن ألعبها مرة أخرى. تلك الألعاب الجميلة التي نسيتها.

أخيراً تكون لدي يقين راسخ بأنني حرمت من ذلك لأنني تكلمت عنه.

لقد ممرت بفترة عصيبة بعد ذلك.. أغرق في البكاء ليلاً وفي أحلام اليقظة نهائياً، وأهملت دروسي لمدة فصلين دراسيين وحصلت على درجات سيئة، هل تذكر؟ بالتأكيد أنت تذكر! تفوقك عليّ في الرياضيات هو ما أعادني لرشدي مرة أخرى.

٣

لفترة من الوقت حدق صديقي بصمت إلى وهج النيران بالمدفأة ثم قال:

- لم أرى ذلك الباب مرة أخرى مطلقاً حتى بلغت السابعة عشرة،

لقد قفز أمامي للمرة الثالثة.. حين كنت استقل سيارة إلى بادينغتون في طريقي إلى أكسفورد حيث حصلت توأ على منحة دراسية، وفي لحظة واحدة خاطفة، كنت أدخن سيجارة في المقعد الخلفي، وأعتقد أنني كنت أفكر في مستقبلتي بلا شك، وفجأة كان الباب أمامي، والجدار، وأنتابني شعور محبب بالأشياء المنسية التي لا تزال قابلة للتحقيق.

تمايلت العربية وأدهشني توقفها عند ناصية الشارع توطأة لعبور الطريق، فمررت بلحظة عجيبة، سايرتني رغبة مزدوجة متناقضة، فنقرت لأنبه السائق، وفي ذات اللحظة ممدت زراعي لأخرج ساعتني.

قال السائق في تهذيب:

- نعم يا سيدي.

قلت: إنتظ.. حسناً.. لا شيء.. إعذرني! هيا أنطلق فليس لدينا متسع من الوقت، فانطلق يكمل طريقه.

حصلت بالفعل على منحتي الدراسية، وفي الليلة التالية كنت أجلس أمام مدفأتي في حجرتي العلوية الصغيرة التي خصصتها للمذاكرة في منزل أبي، الذي أثنى على في حالة نادرة الحدوث، وصوت نصائحه يرن في أذني.

كنت أدخل الغليون سرّاً – مثل كل مراهق متمرّد - وسرحت أفكارني في ذلك الباب المستقر في السور الأبيض الضخم.

قلت لنفسني لو إنني توقفت لحظتها، كنت سأخسر منحتي الدراسية، كنت سأخسر الدراسة في أكسفورد، وأهدم كل هذا المستقبل المشرق الذي ينتظرني، لقد نصجت وصرت أفكر بتعقل.

كنت مستغرقاً التفكير بعمق، وأنا واثقاً أن لا شيء يستحق أن أضحي بمستقبلي من أجله.

هؤلاء الأصدقاء الأعزاء وذلك الجو الصافي كانوا رائعين جداً من وجهة نظري ولكنهم كانوا الآن بعيدين جداً، فقد كنت أتشبث حينها بمكانتي في هذا العالم، كان أمامي الآن باباً آخرًا مفتوحاً على مستقبلي الواعد.

سرح بصره مرة أخرى في ألسنة اللهب، وكان إنعكاس الوهج الأحمر على وجهه يبرز القوة والعزيمة في قسماته للحظة واحدة خاطفة، قبل أن يخبو الوهج لتختفي تعابير وجهه مرة أخرى.

تنهد وقال:

- حسناً.. لقد ألتفت لمستقبلي وأهتتمت به جيداً، لقد عملت بجد لسنوات عدة كي أبنني مستقبلي وبذلت الكثير من الجهد والعرق كي أحقق النجاح في حياتي المهنية والسياسية.

لكنني كنت أحلم بالحديقة المسحورة لآلاف المرات، ولقد رأيت بابها، أو على الأقل لمحت بابها، أربع مرات منذ ذلك الحين، نعم.. أربع مرات.

لزمّن طويل كان عالمي براقاً مفعماً بالفرص يعد بالكثير من النجاحات إلى حد الذي جعل سحر الحديقة مقارنة به واهناً غابراً.

أي نوع من الرجال الذي قد يفضل اللعب مع الفهود بدلاً من تناول العشاء مع النساء الفاتنات ورجال المجتمع ذوي الحيشة!

لقد قدمت إلى لندن من أجل أكسفورد، لقد قطعت على نفسي عهداً بالنجاح، مفعماً بالإصرار على تحقيق الذات، والتغلب على كل الإحباطات التي واجهتني.

لقد وقعت في الحب مرتين، ودعنا لا نتطرق لهذا الأمر، لكن ذات مرة، قررت الذهاب إلى المرأة التي قد بدأت معرفتي بها وقتها، ثم شعرت بأنها خطوة متهورة فأحجمت عن الذهاب لمنزلها، وشرعت أطوف في الشوارع بغير هدى.

قادتني قدمي إلى طريق جانبي غير مطروق بالقرب من مبنى محكمة إيريل، لأصادف سور أبيض به باب أخضر أعرفه جيداً.

أذهلني الأمر وقلت لنفسني إن هذا غريب جداً! أنا متأكد أن هذا السور كان كامبين هيل! إنه المكان الذي لم أستطع العثور عليه مجدداً بآية طريقة، مكان حلم اليقظة الغريب الذي عشته، وقد تحركت نحو السور بنية إشباع شغفي.

كان لدي حافز لحظي لمحاولة الدخول من الباب، كنت أحتاج لثلاث خطوات على الأكثر لأصل إليه، ورغم أنني كنت متيقناً من كل قلبي بأنه سيفتح لي، لكنني فكرت بعدئذ أن ذلك سوف يؤخرني عن مواعيدي، ذلك التأخير الذي اعتقدت وقتها أنه قد يؤثر على سمعتي، فيما بعد كنت ضايقني حرصي على دقة مواعيدي.. وفكرت أنه كان بمقدوري الأقل أن ألقى نظرة إلى الداخل، وأن ألوح بيدي فقط لتلك الفهود.

لكنني علمت كفاية في ذلك الوقت ألا أسعى مرة أخرى في البحث عن ذلك الذي لا يُعثر عليه بالسعي أبداً.

ولسنوات طويلة قضيتها في الإجهاد في العمل بعد ذلك لم أرى الباب مطلقاً، مؤخراً فقط فكرت فيه، كان يتأبني شعور كما لو أن هناك بعض التشوه الخفيف بدأ ينتشر في عالمي، وبدأت أفكر في أنه أمر حزين ومربك أنني لن أرى ذلك الباب مرة أخرى إلى الأبد، ربما كنت أعاني وقتها من الإفراط في العمل الشاق، أو ربما كنت أشعر بأنني أكبر في السن فقد كنت الأربعين، لا أدري تحديداً.

لكن الشيء المؤكد أن ذلك الوهج البراق للنجاح الذي يسكن آلام العمل المضني قد أنطفئ مؤخراً، وأتى ذلك بالتزامن مع كل تلك التطورات السياسية الجديدة، في الوقت الذي كان يجب على أن أجتهد أكثر في العمل لتحقيق المزيد من النجاحات، هذا غريب، أليس كذلك؟

لكنني بدأت أرى الحياة مرهقة بلا داعي، وإن ما نحققه من إنجازات في الحياة لا يستحق كل هذا الكم من التضحيات التي نبذلها في سبيله.

وعدت أفكر بعمق في تلك الحديقة، بالفعل قد رأيت هذا ثلاث مرات

- رأيت الحديقة ثلاث مرات؟!

- كلا.. رأيت الباب! ولم أعبره إلى الداخل قط.

اتكأ على المائدة أمامي، وبصوت يقطر بالحسرة أكمل:

ثلاث مرات.. لقد مُنحت الفرصة ثلاث مرات!

وأقسمت لو أن ذلك الباب ظهر لي مرة أخرى، أقسمت، فسوف أدخل منه تاركاً خلفي كل هذا الغبار والحمى، كل هذا البريق الزائف للغرور الأجوف، كل هذا الإرهاق العنثي للحياة.

أقسمت أن أذهب وألا أعود مطلقاً، هذه المرة سأبقى.

وعندما حانت الفرصة.. تراجعت!!

ثلاثة مرات أمر أمام هذا الباب.. ثلاثة مرات في العام الماضي فقط.. ولم استطع الدخول.

المرة الأولى كانت في ليلة مناقشة مشروع تعديل قانون الرهن العقاري، الذي ممرته الحكومة بفارق ثلاثة أصوات فقط عن المعارضة، أتذكر هذا؟ لا أحد في الحزب ولا حتى في المعارضة كان يتوقع هذا الأمر في تلك الليلة، لقد تفتت الجدل كأنه قشر بيض!

كنت أنا وهوتشكيز تتناول العشاء مع ابن عمه في برنتفورد، وقت ما كان كلانا لا يزال عازباً، وقد اتصلوا بنا للحضور فوراً، فانطلقنا معاً بسيارة ابن عمه.

لقد وصلنا بالكاد في الموعد المناسب، وفي الطريق مررنا بجداري وبابي.. كان غارقاً في الظلال تحت ضياء القمر، ثم توهج في الضوء الأصفر الساطع الناتج عن تسليط ضوء كشافات السيارة عليه، كان هو بعينه بما لا يدع مجالاً للشك، فصحت بعفوية «يا إلهي!» وتساءل هوتشكيز مندهشاً «ماذا هناك؟» لكنني أجبت «لا شيء!» وتجاوزت الموقف.

وحينما دخلت البرلمان قلت لرئيس المجلس أنني ضحيت بأمر بالغ الأهمية كي ألبى الاستدعاء، فقال لي في حزم كل الأعضاء فعلوا ذلك، قالها وهو يسرع إلى داخل المجلس.

لم أدري ماذا كان يمكنني فعله بخلاف ذلك حينها.

أما المرة الثانية فكانت وأنا أهرع لسرير أبي، لأرى أبي العجوز الصارم لأخر مرة، أسرع بجانب أبي لأقدم لذلك الرجل العجوز الصارم الوداع. بالطبع كان الوضع وقتها أهم من أي شئ آخر.

لكن المرة الثالثة كانت مختلفة؛ وقد حدث منذ أسبوع، إن تذكر الأمر يملؤني بالندم البالغ.

كنت مع جوركر ورافس.. وهذا ما عاد سرّاً الآن، أنت تعلم أنني أجريت مفاوضات مع جوركر.

كنا نتناول العشاء في فوربيشرز، وقد صار الحديث بيننا حميمياً. وكان موضوع إعادة هيكلة الوزارة ومكاني فيها هو محور النقاش بالطبع.

نعم.. كان ذلك أمر مفروغ منه، لا داعي للحديث عن ذلك ولكني لا أخفي عليك أية أسرار الآن، فقط دعني أكمل باقي قصتي.

في تلك الليلة كان الجو مشحون وكان وضعي حساساً جداً وكان كل همي أن أنتزع وعد صريح من جوركر، ولكن وجود رافلز كان يحول دون ذلك.

حاولت بكل ما أملك من ذكاء أن يبدو النقاش عاماً عرضياً لا تظهر فيه أية بادرة على أنني أوجه النقاش لخدمة أغراضي.

كنت مضطراً لذلك، وقد كان سلوك رافلز دافعاً لذلك الحرص، ونحن في الطريق كنت أعلم أن رافلز سيتركنا بعد شارع كينسنگتون الرئيسي، وبعدئذٍ أستطيع مباغتة جوركر بحديثي صراحة، فالمرء يضطر أحياناً إلى بعض الحيل.

عندئذ أدركت أن في هامش مجال رؤيتي يوجد ذلك الحائط الأبيض، والباب الأخضر أمامنا في منتصف الطريق.

مررنا به ونحن منهمكون في الحديث، لقد تجاوزته مرة أخرى!

ما زلت أذكر المنظور الجانبي لوجه جوركر الماشي بجواري، وشكل ظله بقيعته العالية المائلة للأمام فوق أنفه البارز، والطيات المتعددة للشال الذي يلفه حول عنقه، يمتد على الأرض سابقاً ظلي وظل رافس بينما نحن نمشي الهوينى متأخرين عنه بخطوة.

تخطيت الباب الأخضر بخطوات وسألت نفسي ماذا سيحدث لو ودعتهما الآن ودخلت من الباب؟!

وماذا أفعل حيال الفرصة التي انتظرها لاستكمال الحديث على إنفراد مع جوركر؟!

إجابة تلك الأسئلة كانت تشي بالعديد من المشاكل، بالتأكيد سيعتقدون أنني مجنون، ثم ماذا لو أنني اختفيت من بينهما فجأة الآن!

«اختفاء سياسي بارز في ظروف غامضة» بالتأكيد إن هذا سيكون أبرز عناوين الأخبار في الغد.

هنالك ألف شئ تافه في حياتي كان له اعتبار في تلك الأزمة.

ثم ألتفت لي بابتسامة مشجعة وقال في هدوء:

- هأنذا!

لم أنطق فكرمرة أخرى:

- هأنذا!

وهكذا ضاعت مني فرصتي، ثلاث مرات في سنة واحدة كان الباب أمامي يدعوني إلى الدخول.. الباب الذي يؤدي إلى السلام.. إلى السرور.. إلى الجمال الذي يفوق الأحلام، كان يدعوني بكرم يفوق كل التصورات وقد رفضت الدعوة.

وها قد ضاع نهائياً يا ردموند.

- وما أدراك؟!

- أنا أعلم ذلك جيداً.. أعلمه تماماً.. لقد وهبت حياتي بأكملها للعمل والمثابرة على إنجاز كل الواجبات التي كانت تملكني ومتنعني عن الاستمتاع بأي لحظة في حياتي.

أنت تعتقد أنني صادفت الكثير من النجاحات ولكنني في الواقع لم أصادف سوى المظاهر الزائفة، والابتذال والإزعاج والحسد.

ثم أمسك بيده الضخمة ثمرة جوز بيده ثم هشمها وعرض على فتاتها في كفه وهو يقول:

- هذا ما فعله بي نجاحي، دعني أخبرك بشيء يا ردموند، إن ما خسرتَه يدمرني.

لمدة شهرين، بل ما يقرب من ثلاثة أشهر الآن، لم أنجز أي عمل على الإطلاق، باستثناء بعض الواجبات الضرورية التي لا تحتمل التأجيل، إن روحي مملوءة بالحسرة التي لا تفني، وفي الليل عندما يكون احتمال مصادفة شخص يعرفني قليل، كنت أخرج لأهيم في الطرقات، وأتساءل عما قد يفكر فيه الناس إذا علموا أن وزيراً في الحكومة، والمسؤول الأول عن أكثر الهيئات أهمية، يتجول وحيداً في الليل يعتصر الحزن قلبه لدرجة أنه يأن أحياناً بصوت مسموع من أجل باب، من أجل حديقة!

ع

الآن يمكنني تذكر وجهه الشاحب، ووهج نار المدفأة الخابية ينعكس في عينيه بصورة غامضة، أجلس ليلتي أتذكر ملامحه بوضوح شديد، أتذكر كلماته ونبرة صوته، بينما الطبعة المسائية لجريدة وستمنستر الرسمية ما تزال ملقاه على الأريكة، مفتوحة على نعي وفاته، وفي غداء اليوم كان النادي بأكملهم مشغولاً بملابس وفاته.

لقد عثروا على جثته في ساعة مبكرة من صباح أمس، في موضع حفر عميق قرب محطة سكك حديد كينسينغتون الشرقية، حيث تقوم هناك بعد التوسعات لتمديد خطوط السكة الحديدية جنوباً، وهو موقع أعمال محمي بسيج خشبي يفصله عن الطريق السريع، وبه مدخل صغير فتحه العمال ليسهل حركة تنقلهم، وقد تركوه غير موصد في إهمال إثر خلاف نشأ رئيسي عمال.

لا شك أن والاس شق طريقه عبره، إن عقلي زاخراً بالأسئلة والألغاز المرتبطة بموته.

أعتقد أنه في تلك الليلة قد سار كل المسافة ما بين البرلمان وحتى منزله، فقد كان معتاداً على العودة لمنله سيراً بعد انتهاء جلسات البرلمان في الآونة الأخيرة.

أتخيل مظهره وهو يجوب وحيداً تلك الشوارع الخاوية المظلمة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، هل أضواء المصابيح الباهتة قرب المحطة هبأت له أن السياج الخشبي هو ذلك السور الأبيض؟!

وذلك الباب غير الموصد الذي قاده إلي حتفه، هل أيقظ بداخله الذكريات؟

والأهم من ذلك هل كان هناك أصلاً سور به باب أخضر بالفعل؟!

لست أدري، أنا فقط حكيت قصته كما حكاها لي.

هناك أوقات أشعر فيها أن والاس لم يكن سوى ضحية لنوع نادر غير مسبوق من الهلوسة أو ضحية لعقدة الإهمال في طفولته.

لكن في صميم قلبي لم يكن هذا اعتقادي بحق.

قد تعتبرني أبلهاً يؤمن بالخرافات إذا شئت، ولكن، في واقع الأمر، عجباً، أنا أميل أكثر للاعتقاد بأنه قد مُنح هبة أو حاسه خارقة للعادة، شيء ما - لا أفهمه بالضبط - لكنه اتاه في هيئة ذلك الجدار والباب الذي يمنحه سبيلاً سرّياً شديد الخصوصية للهروب إلى عالم آخر أكثر جمالاً وبهاءً.

في كل الأحوال ستقول، إنها موهبته قد أهلكته في النهاية، لكن هل حقاً أهلكته؟

تتوغل في سر هؤلاء الحالمين، هؤلاء الرجال ذوي البصيرة والخيال.

إن رؤيتنا الشائعة لعالمنا قاصرة، نحن نرى سياج خشبي وحفرة، وبمقاييسنا الدنيوية فإن والاس قد خاطر بنفسه وألقى بها إلى قلب الظلمات والخطر والتهلكة.

لكن..

هل رأى هو الأشياء كما نراها؟!

المتجر السحري

لقد رأيت المتجر السحري من بعيد عدة مرات؛ ومررت أمام واجهته الزجاجية مرتين تقريباً، إنها واجهة مليئة بمعروضات صغيرة جذابة، كرات سحرية، دجاج سحري، أقماع مدهشة، دمي تتكلم من بطنها، أدوات خدعة السلة، مجموعات من أوراق اللعب المغشوشة كي تريح دائماً، والعديد من هذه الأشياء.

لكنني لم أفكر قط أن دخوله حتى أمس، فيدون سابق إنذار، سحيني جيب من إصبعي مباشرة إلى الواجهة، ومن ثم أدار نفسه أمامه بحيث لا يكون لي مفر سوى دخول المتجر.

في الحقيقة لم أكن متأكد من وجوده في هذا المكان بواجهته المتواضعة المحشورة بين ستوديو التصوير وبين مفرخ الدجاج حيث تقفز فيه الكتاكيت بمجرد خروجهم من الحضانات الآلية الحديثة، لكن ها هو بكل تأكيد.

كنت أتخيل إن موقعه أبعد من هذا بالقرب من السيرك، أو في نطاق شارع أكسفورد، أو حتى في هولبورن؛ كنت أراه دوماً عبر الطريق بصورة تجعل الوصول إليه صعباً، كنت أتخيل موقعه دائماً لكن ها هو الآن أمامي بكل وضوح، وأنامل جيب تنقر على زجاج الواجهة وهو يشير إلى ما بداخلها.

«لو كنت أملك مالاً.. كنت سأشتري هذه»

يقولها جيب وهو يشير إلى البيضة التي تختفي.. ثم يكمل بطريقة بتلك اللهجة الباكية المتوسلة التي يجيدها كل الأطفال:

- وهذه..

يشير إلى علبة غامضة، تحمل بطاقة أنيقة مكتوب عليها: «اشتر واحدة وأذهل أصدقاءك».

ويقول جيب في حماسة:

- أي شيء سوف يختفي تحت أحد هذه الأقماع السحرية.. لقد قرأت عن هذا في كتاب.

وهذه يا أبي، العملة الخفية.. لقد وضعوها بهذه الطريقة حتى لا نستطيع أن نرى كيف تعمل.

جيب، ابني الغالي، قد أحسنت أمه تربيته، فلم يطلب مني دخول المتجر صراحة، بل لم يبدي إنزعاجاً إذا تركناه وأكملنا سبيلنا، هو فقط كان يجرنني من إصبعي نحو الباب بلا وعي وهو يتحدث بحماسة عن أمنيته.

يقول وهو يشير إلى الزجاجاة السحرية:

- وهذه.

فأسأله:

- وبفرض أن امتلكتها؟

السؤال المبشر يجعله ينظر لي وقد أشرق وجهه بهجة مفاجئة ليقول في سرور:

- سوف لأعرضها على جيسي.

إن يفكر في الآخرين مفكراً كعاداته.

فأقول بإبتسامة:

- إن عيد ميلادك قد أقترّب يا جيلز.

وبدون كلمة إضافية أمد يدي إلى مقبض الباب، فلا ينطق جيب بكلمة، لكنه دون وعي يشدد قبضته حول إصبعي شدت على إصبعي، وهكذا دخلنا المتجر.

لم يكن هذا متجرًا عاديًا، بل كان بالفعل متجرًا سحريًا، فكل الضوضاء والقفزات بين المعروضات التي كان يفعلها جيب بمجرد يده دخوله لأي متجر ألعاب لم تحدث قط، وترك لي القيادة في هدوء!

كان متجرًا صغيرًا، ضيقًا، ضعيف الإضاءة، ورن جرس الباب مرة أخرى بنغمة حزينة ونحن نغلقه وراءنا.

للحظة كنا بمفردنا واستطعنا إلقاء نظرة حولنا، كان هناك نمر من الورق المقوي داخل صندوق زجاجي موضوع على النضد المنخفض.. نمر مهيب بعيون نارية تهتز رأسه بطريقة آلية متكررة؛ وكان الكثير من البللورات السحرية، ويد خزفية تمسك أوراق لعب سحرية، ومجموعة مختلفة الأحجام من أوعية الأسماك السحرية، وقبعة سحرية مهيبة تبرز حوافها بشدة.

وعلى الأرض تتراص مجموعة من المرايا السحرية؛ فواحدة تظهرك طويلًا ممطوطاً شديد النحافة،
وواحدة تضخم رأسك بشدة وتصغر ساقيك، وواحدة تجعلك قصيراً مستديراً كالبرميل.

بينما نحن نضحك على هذه الأشكال ظهر لنا البائع كما أظن.

على أية حال، برز لنا ليفاجئنا من خلف النضد.. رجل غريب الأطوال شاحب الوجه، كئيب المظهر، له أذن
أكبر من الأخرى وذقن مدببة كبوز الحذاء.

قال وهو يمد أصابعه الطويلة العجيبة على الصندوق الزجاجي:

- كيف أنال شرف خدمتكما؟

فقلت:

- أريد أن أشتري لابني بعضاً من الحيل البسيطة.

فسأل:

- حيل خفة يد؟ أم ميكانيكية؟ أم منزلية؟

فقلت:

- أي شيء مسلي.

قال في هدوء:

- امم!.. وحك رأسه للحظة كما لو أنه يفكر، ثم، فجأة سحب من رأسه كرة زجاجية حقيقية تماماً وقال
وهو يعرضها عليّ:

- شيء مثل هذا؟

كانت حركة غير متوقعة بالمرة، لقد رأيت هذه الخدعة تؤدي من قبل في العديد من العروض الترفيهية
فهي جزء أصيل من الألعاب السحرية، لكنني لم أتوقعها أبداً هنا.

فقلت ضاحكاً:

- هذا عظيم.

سأل صاحب المتجر:

- أليس كذلك؟

مد جيب يده الطليقة ليتناول منه الكرة لكنه يجد كفه فارغة.

فيقول البائع:

- إنها في جيبك.

يمد جيب يده في جيبه ليجدها هناك بالفعل.

سألته:

كم سعرها؟

قال البائع بتهذيب بالغ:

- نحن لا نأخذ أي مقابل للكرات الزجاجية، فنحن نحصل عليها مجاناً.

بينما هو يتحدث يخرج أخرى من مرفقه، وواحدة من خلف رأسه ليضعهما على النضد.

نظر جيب إلى كرتة الزجاجية متفحصاً، ثم أدار نظرة ليتحقق من الكرتين الأخريين فوق النضد، لوجه عيونه في تمحيص إلى البائع الذي ابتسم ثم قال:

- يمكنك أن تأخذ هاتين أيضاً.. وإذا لم تمنع، ها هي واحدة إضافية من فمي!

تبادل معي جيب نظرة تفاهم دون كلمة، ثم وضع الكرات الأربعة بعيداً في صمت، وأستأنف القبض على إصبعي في اطمئنان، متحمساً للعرض التالي.

علّق صاحب المتجر:

- نحن نحصل على كل خدعنا الصغيرة بتلك الطريقة.

ضحكت بطريقة شخص يشارك في مزحة قائلاً:

- بالطبع هذا أرخص من طلبها من متجر الجملة بالتأكيد.

قال صاحب المتجر:

- بطريقة ما.. رغم أننا ندفع في النهاية، لكن ليس كثيراً جداً كما يفترض الناس، فالخدع الكبرى، والمخصصات اليومية، وكل الأشياء الأخرى التي نريدها، نحصل عليها من تلك القبعة.. أنت تعلم يا سيدي لو سمحت لي بقولي هذا، لا يوجد متجر جملة، ليس للسلع السحرية الحقيقية سيدي.

لا أعلم إذا ما لاحظت شعارنا.. «المتجر السحري الأصلي».

سحب بطاقة دعاية من خده وقدمها لي وقال:

أصلي – يشير بإصبعه على الكلمة، ويضيف:

- لا توجد خدع على الإطلاق يا سيدي.

بدا أنه يقدم مزحة متقنة ببراعة، اعتقدت ذلك.

ثم استدار إلى جيب بابتسامة عذبة ملفتة وقال:

- أنت، كما تعلم، من النوع (الحقيقي) من الأطفال.

كنت مندهشاً لعلمه ذلك، لأنه، من أجل التهذيب، نحتفظ بهذا سرّاً إلى حد ما حتى في المنزل؛ لكن جيب استقبل هذا بصمت لا يتزعزع، مبقياً عينيه ثابتتين على صاحب المتجر.

- فقط النوع الحقيقي من الأطفال الذي يمكنه العبور من ذلك الباب.

وكما لو أنه تأكيداً على كلامه، جاء من عند الباب صوت ضخب حاد يخالطه عويل طفل صغير يمكن تمييزه بالكاد .. «إنّبه يا ولد.. أريد أن أدخل هناك يا أبي .. أنتبه لنفسك .. لكنني أريد أن أدخل هذا المتجر..

نياااه!»

وبعد ذلك تأتي نبرة صوت لأب يعاني في مواساة واسترضاء الولد قائلاً:

- الباب مغلق يا إدوارد.

قلت في دهشة:

- لكنه ليس مغلقاً!

قال صاحب المتجر:

- إنه كذلك، سيدي.. دائماً.. أمام ذلك النوع من الأطفال.

وبينما يتحدث لمحنا ذلك الطفل، يطرق الواجهة الزجاجية الساحرة. إنه طفل، شاحب اللون من فرط أكل الحلوى والطعام الجاهز ذو النكهات الصناعية. تشوّهت فطرته بالطباع السيئة والتدليل المفرط، تنعكس علي تصرفاته القسوة والأنانية والغرور،

بحركة عفوية تحركت تجاه الباب قاصداً فتحه للطفل المولود، فقال صاحب المتجر بلهجة محذرة:

- هذا ليس تصرف جيد يا سيدي.

وفي ذات اللحظة كان الطفل المدلل يُحمل بعيداً وهو يعوي.

تنهدت في إرتياح أكبر ثم سألته:

- كيف دبرت هذا الأمر؟

فقال صاحب المتجر وهو يلوح بيده في لامبالاة:

- بالسحر!

ويا للعجب! لقد تطايرت شرارات نارية ملونة من أصابعه مع تلويحته ثم تبددت في ظلال المتجر.

قال، موجّهاً حديثه إلى جيب:

- لقد كنت تقول قبل أن تدخل، أنك ترغب في الحصول على واحدة من صناديق «اشتر واحدة وادهش أصدقاءك؟»

قال جيب، بعد محاولة مضينة:

- أجل.

- إنها في جيبك.

ومنحنياً فوق الطاولة - إنه حقاً فارغ الطول بشكل عجيب- أنتج هذا الشخص المذهل اللعبة بأسلوب حواة معتاد.

قال: «ورق»، وأخذ ورقة من القبة الفارغة ذات الحواف؛ «خيطة»، وعجباً كان فمه صندوق خيط، سحب منه خيطاً لا ينتهي، وبعدما عقد اللعبة قضمه وبدا لي، أنه بلع كرة الخيط. وبعد ذلك أشعل شمعة من أنف واحدة من الدمى التي تتحدث من بطنها، ووضع على اللهب واحداً من أصابعه (الذي أصبح عبارة

عن شمعة حمراء) ثم دمع به العلية. قال: «ثم كانت هناك البيضة المختفية»، وأخرج واحدة من صدر معطفي ولفها، وأيضًا الطفل الباكي المتقن كأنه طفل حقيقي.

وهكذا سلمت كل علبة إلى جيب عندما كانت جاهزة، الذي ضمها إلى صدره.

نطق القليلًا جدًا من الكلمات، لكن عينيه كانتا بليغتين؛ ضمة ذراعيه للعب كانت أشد بلاغة، كان قلبه مرتعًا للعواطف التي لا توصف. فهذا، كان سحرًا حقيقيًا.

ثم، على حين غرة، اكتشفت شيئًا يتحرك في قبعتي.. شيئًا ناعمًا يتقافز. رفعت القبة، خرجت حمامة منزعة - لا شك شريكته - وطارت على الطاولة، وذهبت، وسط دهوري، إلى صندوق من الورق المقوي خلف مجسم النمر الورقي.

قال صاحب المتجر: «هش، هش»، وهو يحررني ببراعة من غطاء رأسي؛ «طائر مستهتر، وحسب ما أكون يعيش».

هز قبعتي، وأفرغ إلى يده الممدودة بيضتين أو ثلاث، قطعة رخام كبيرة، ساعة، حوالي نصف دسنة من الكرات الزجاجية إياها، ورقة، مطوية مجمدة، والمزيد والمزيد، متكلمًا طوال الوقت عن الطريقة التي يهمل بها الناس أن ينظفوا قبعاتهم من الداخل جيدًا كما ينظفونها من الخارج، بتهذيب، طبعًا، لكن بتلميح شخصي مقصود. «كل أنواع الأشياء تتراكم، سيدي... ليس أنت بالطبع، بشكل خاص... تقريبًا كل زبون... يندهش مما يحمل معه...» الورقة المجمدة ارتفعت وماجت فوق الطاولة أكثر وأكثر وأكثر، إلى أن اختبأ هو منا تقريبًا، كان قد اختفى تمامًا، وما زال صوته يستمر ويستمر. «لا أحد منا يعلم ما بمقدور المظهر الأنيق لكائن إنساني أن يخفي، سيدي. ألسنا جميعًا أفضل من الخارج مثل شاهد قبر ناصع البياض، نظيف من الخارج بينما داخله..

توقف صوته.. بالضبط مثلما تضرب جرامافون أحد الجيران بحجر مصوب بدقة، نفس الصمت المباشر، وخشخشة الورق توقفت، وكل شيء كان ساكنًا...

قلت، بعد فترة: «هل انتهيت من قبعتي؟»

لم تكن هناك إجابة.

حدقت في جيب، وحدقت في جيب، وكان هناك تشوه في المرايا السحرية، يبدو عجيبًا جدًا، ومهيئًا، وهادئًا...

قلت: «أعتقد أننا سنذهب الآن.. هل تخبرني كم تبلغ تكلفة كل هذا؟»

قلت، بصوت أعلى كثيرًا: «أنا أقول.. أريد الفاتورة؛ وقبعتي، من فضلك».

ربما كان هناك استنشاق خلف كومة الورق...

قلت: «دعنا ننظر خلف الطاولة، جيب.. إنه يمنح معنا».

اصطحبت جيب حول النمر مهتز الرأس، وماذا تعتقد كان خلف الطاولة؟ لا أحد على الإطلاق! فقط قبعتي على الأرض، وأرنب حواة أبيض عادي ذو أذنين متدليتين ضائع في التأمل، ويبدو غيبًا ومجمدًا فقط مثلما يستطيع أرنب حواة. استرددت قبعتي، وثب الأرنب وثبة أو أكثر بعيدًا عن طريقي.

قال جيب، بهمس مذبذبة: «دادي».

قلت: «ما الأمر، جيب؟»

«هذا المتجر يعجبني، دادي».

قلت لنفسني: «وينبغي أن يعجبني كذلك.. لو أن الطاولة لم تمد نفسها فجأة لتحجزنا عن الباب».

لكنني لم ألفت انتباه جيب لذلك. قال جيب بيد نحو الأرنب وهو يأتي واثبًا وراءنا: «بسبس، بسبس، وعيناه تبعته وهو يفلت من باب لم ألاحظه بلا شك قبل لحظة».

ثم فُتح هذا الباب أكثر، والرجل ذو الأذن الأكبر من الأخرى ظهر ثانيةً. كان ما زال مبتسمًا، لكن عينيه قابلتا عينيّ بشيء بين اللهو والتحدي.

قال، في لطف متظاهراً بالبراءة:

- ستحب أن ترى صالة العرض ياسيدي.

شدني جيب من إصبعي إلى الأمام. ألقيت نظرة على الطاولة وقابلت عين صاحب المتجر ثانيةً. بدأت أعتقد أن السحر حقيقي أكثر من اللازم. قلت:

- ليس لدينا الكثير من الوقت..» لكن بطريقة ما كنا داخل صالة العرض قبل أن أستطيع إنهاء ذلك.

قال صاحب المتجر وهو يفرك يديه بجذل:

- كل المنتجات بنفس الجودة.. وهذا هو الأفضل. لا شيء في المكان ليس سحرًا أصليًا، ومضمون. تمامًا.. عذراً يا سيدي».

شعرت به يسحب شيئاً متشبيهاً بكم معطفي، ثم رأيته يمسك بذيل شيطان أحمر صغير يحاول التملص.. الكائن البشع يقضم الهواء ويكافح كي يعض يده ثم في لحظة خاطفة ألقاه البائع بلامبالاة وراء الطاولة. لا شك أن الشيء كان فقط مجسمًا من المطاط المتلوي، لكن في هذه اللحظة كانت حركة الرجل بالضبط كأنه أمسك فأراً.

ألقيت نظرة على جيب، لكن جيب كان ينظر إلى حصان سحري هزاز. شعرت بالارتياح أنه لم ير هذا الشيء. قلت، بصوت خفيض، ونظرت نحو جيب ثم نحو الشيطان الأحمر: «أعتقد أنه ليس لديك الكثير من هذه الأشياء هنا، أليس كذلك؟»

قال صاحب المتجر: «ليس من عندنا! ربما جليته معك».

بصوت خفيض أيضاً، وبابتسامة أكثر تألقاً من ذي قبل: «مدهش ما قد يحمله الناس معهم لاشعوريًا».

وبعدئذٍ إلى جيب: «هل رأيت شيئاً يعجبك هنا؟»

كان هناك العديد من الأشياء التي أعجبت جيب هناك.

استدار جيب إلى هذا البائع المذهل بمزيج من الثقة والاحترام، قال: «هل هذا سيف سحري؟»

- إنه سيف سحري لعبة. إنه لا يلتوي أو ينكسر ولا يقطع الأصابع. ويجعل حامله لا يُقهر في معركة ضد أي شخص دون الثامنة عشرة. سعره يتراوح من شلن إلى سبع وستة بنسات، حسب حجمه.

وهذه الدروع على للفرسان المغامرين الصغار.. إنها مفيدة جدًا.. درع الحماية، حذاء التحرك السريع، خوذة التخفي».

قال جيب وهو منقطع الأنفاس من اللهفة: «يا للروعة يا أبي».

حاولت معرفة ثمنهم، لكن البائع لم يأبه بي، لقد حاز جيب على كل اهتمامه الآن، واصطحبه بعيداً من إصبعي، وهو يباشر عرض كل بضاعته المبهرة عليه، ولم يكن شيء ليوقفه. أصابني الارتياح وشعرت بنوع من الغيرة وأنا أرى جيب وقد أمسك بإصبع هذا الشخص كما كان يمسك بإصبعي.

بلا شك أن الرجل كان مثيّرًا للاهتمام، وقد دبر الكثير من الخدع بشكل مشوق، حقًا خدع ممتعة جداً ومتقنة بشدة.

تجولت وراءهما، أتحدث قليلاً جداً، لكن أبقى عيني على هذا الحاوي البارع. على كل حال كان جيب مستمتعاً، وبالتأكيد عندما يحين وقت الرحيل فلن يتركنا نرحل بسهولة.

كانت صالة العرض عبارة عن ممرٍ طويلاً متعرجاً، بها رواق مزدحم بوحدات أرفف ودواليب ومفصول بأعمدة، وممرات تقود إلى أقسام أخرى، بها مساعدون غريبو الهيئة يتسكعون ويحدقون فينا، وبها العديد من المرايا والستائر المربكة حتى إنني كنت حالياً غير قادر على الوصول إلى الباب الذي أتينا منه.

عرض البائع على جيب قطارات سحرية تعمل دون بخار أو زنبرك، بمجرد الإشارة، وبعدئذٍ بعض اللعب الثمينة للغاية لجنود يبعثون للحياة مباشرةً حينما ترفع الغطاء وتقول كلمة ما - أنا شخصياً ليس لدي أذن حساسة وصدرت هذه الكلمة بلسان ملتبس، لكن جيب، ورث سمع أمه المرهف، فالتقط الكلمة سريعاً. فقال صاحب المتجر: «أحسننت!» واضعاً الجنود في العلبة مرة أخرى دون تكلف ثم سلمها لجيب.

قال صاحب المتجر: «الآن». وفي لحظة جعلهم جيب أحياء كلهم ثانيةً.

سأل صاحب المتجر: «سوف تأخذ تلك العلبة؟»

قلت أنا: «سأخذ تلك العلبة.. إذا كان عليها خصم كبير، فهذه تحتاج لرجل ثري كي يقدر على ثمنها بالتأكيد.

قال صاحب المتجر وهو يعيد الرجال الصغار في العلبة مرة أخرى: «حبيب قلبي! لا». وأوصد الغطاء، ثم رج العلبة في الهواء، وإذ بها تتحول إلى علبة مغلقة في ورق هدايا، ومحكمة الربط وعليها اسم جيب الكامل وعنوانه على بطاقة ملصقة على جانبها!

ضحك صاحب المتجر على ذهولي.

قال: «هذا هو السحر الحقيقي.. الشيء الأصلي».

قلت مرة أخرى: «إنه حقيقي أكثر من اللازم بالنسبة لي».

بعد ذلك راح يُري جيب خدعاً، خدع غريبة، والأغرب منها الطرق التي تُؤدي بها. شرحهن، كشف كيف يصنعهن، وصغيري العزيز الصغير الحبيب يهز رأسه الزدحم بالأفكار بطريقة حكيمة.

تلكأت قليلاً فقال صاحب المتجر السحري: «هيا، بسرعة!» وبعدها أتت «هيا، بسرعة!» الصغيرة البريئة للولد. لكنني كنت شاردًا في شيء آخر. كنت محملاً بعبء التفكير في ذلك المكان العجائبي بشكل مروع؛ إنه إن جاز التعبير، مغموراً بالخوارقية.

كان هناك شيء خوارقي بشأن التجهيزات، حتى بشأن الأرضية، والسقف، بشأن الكراسي الموزعة بعشوائية.

كان لدي شعور غريب بأنني حينما لا أكون ناظرًا نحوهم مباشرة فإنهم يتحركون وتتغير أماكنهم، كأنهم يلعبون «القطة العمياء» خلف ظهري.

والإفريز المجسم للسقف كان ذا تصميم شيطاني مرصع بالوجوه، وجوه معبرة أكثر مما ينبغي بالنسبة لأفريز من الجبس التقليدي.

ثم فجأة جذب انتباهي واحد من المساعدين غريب الهيئة. كان بعيدًا إلى حد ما وغير مدرك بوجودي على ما يبدو.. رأيت تقريبًا ثلاثة أرباع طوله خلال مدخل وراء كومة من الألعاب.. وكان متكئًا على عمود في خمول نوعًا ما وكان يفعل شئ فطيع بلامحه! الأكثر فطاعة بالتحديد ما كان يفعله بأنفه.

كان يتصرف كما لو انه يسلى وقت فراغه.

في البدء كان أنفه قصيرًا محدب، ثم فجأة راح يتمدد طويلاً كأنه عقل متداخلة مثل التليسكوب كل عقلة أرفع من سابقتها وبدأ يرفع أكثر وأكثر ويطول أكثر وأكثر حتى صار في النهاية مقل سوط طويل أحمر، مرن . كان منظرًا كالكابوس! وهو يطوح بأنفه الشبيه بالأفعى الملتوية حوله في كل اتجاه.

أول ما بدر لذهني أن أن جيب لا يجب أن يراه أبدًا.. استدرت نحوه، وكان هناك غارقًا في الأنهماك مع البائع، حسن النية، لا يتوقع شرًا، كانا يتهامسان معًا وينظران نحوي، جيب يقف على كرسى صغير، وصاحب المتجر يمسك ما يشبه البرميل المجوف في يده.

صاح جيب: «لنلعب الغميضة يا أبي، استعد!»

وقبل أن أستطيع فعل أي شيء لمنع ذلك، وضع البائع البرميل فوقه.

صرخت فيه بعصبية بالغة:

- أرفع ذلك الشيء فورًا! سوف تخيف الولد. أخرجه حالاً!

دون أن ينطق بأية كلمة، رفع البائع ذو الأذن المشوهة البرميل المجوف ومدّه أمام بصري لأراه فارغًا..

كذلك المقعد الصغير كان شاغرًا! وقد اختفى ولدي تمامًا في تلك اللحظة؟

شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبي في لوعة.. شعور مقيت بإنعدام الحيلة وضاق صدري كأنما تصعد روحي للسماء..

يقتلني التوتر والقلق على ولدي ويجعل حركتي ثقيلة والكلام ينحشر في حلقي فلا أقدر على النطق..

سرت أجر جر قدمي نحو البائع المبتسم في لوجه ثم ركلت المقعد جانبًا وصرخت فيه:

أوقف هذا السخف فورًا.. أين ولدي؟

قال في هدوء قاتل وهو يعرض على باطن البرميل الفارغ:

- أنت ترى بنفسك.. لا توجد خداعة.

مددت يدي لأقبض عليه، لكنه راوغني بحركة بارعة. حاولت الإنقضاض عليه فجأة، فتفاداني واستدار وهو يدفع بابًا ليفتحه ويهرب.

فقلت: «توقف!»

وضحك وهو، ينسل عبر الباب فقفزت خلفه إلى الداخل حيث الظلام المطبق.

صوت اصطدام!

- أعذرني بارك الله فيك! لم أرك قادمًا يا سيدي!

وجدت نفسي في شارع ريجنت، وقد اصطدمت برجل يبدو موظفًا محترمًا؛ على بعد متر مني يقف جيب وجيدًا يبدو مشتتًا قليلًا.

اعتذرت للرجل في تهذيب وجيب يستدير بوجه نحوي بابتسامة مشرقة، كما لو أنه تاه مني للحظة فقط.

وكان يحمل بين ذراعيه أربع علب!

مد يده فوراً ليمسك إصبعي باطمئنان.

للحظة ارتبكت في شتات، حدقت حولي لأرى باب المتجر السحري، ويا للعجب، لم أجده هناك! لم يكن هناك باب، ولا متجر، لا شيء، فقط الجدار المألوف بين ستوديو التصوير والواجهة التي بها الكتاكيت!

تمالكت نفسي وفعلت الشيء الوحيد الممكن الوحيد وسط دوامة الاضطراب العقلي تلك؛ مشيت مباشرة نحو حافة الرصيف ومددت شمسيتي لأوقف عربة أجرة.

قال جيب في بهجة متناهية:

- عربة بحصان.

ساعده في ركوب العربة، وتذكرت عنواني بصعوبة وأنا استقر بجواره في العربة. شعرت بشيء ما غير اعتيادي يستقر في جيب معطفي، واكتشفت أنها كرة زجاجية. قذفتها في الشارع بعصبية.

لم يقل جيب شيئًا.

لبرهة لم ينطق أحدا.

قال جيب، أخيرًا: «أبي! لقد كان ذلك المتجر رائعًا!»

أعادني ذلك للتفكير في مشكلة كيف بدا له الأمر بأكمله.

يبدو جيب مستمتعًا بشدة حتى تلك اللحظة، حسنًا؛ لم يكن متوترًا أو خائفًا، كان بمنتهى البساطة سعيدًا بصورة عظيمة بهذه الجولة الترفيهية، ويحمل بين ذراعيه العلب الأربعة.

سحقًا! ماذا قد يكون بداخلها؟

قلت: «امم! الأطفال المهبزون لا ينبغي لهم الذهاب إلى متاجر مثل هذا كل يوم».

استقبل هذا بلا تذمر كعادته، ولوهلة شعرت بالأسف أنه مع أبوه وليس أمه، لأنني لم أستطع تقييله فجأة هكذا في مكان عام، وفي عربة بحصان، على كل حال الأمر لم يكن بهذا السوء.

لكنني بدأت أطمئن حقًا حينما فتحنا العلب. ثلاث كانت تضم مجموعات من الجنود، جنود لعبة عادية تمامًا، لكنها من أجود الأنواع والأدق صنعًا لدرجة أن جيب نسي تمامًا أن هذه العلب يفترض أنها بالأصل خدع سحرية حقيقية.

والصندوق الرابعة كان به قطعة!، قطعة حقيقية صغيرة بيضاء اللون جميلة الشكل، وصحتها ممتازة.

تابعت إفراغ العلب هذا بنوع من الارتياح المؤقت. بقيت أتجول في حجرة جيب لوقت أطول من المعتاد...

حدث ذلك منذ ستة أشهر. والآن بدأت أعتقد أن كل شيء على ما يرام.
القطة لديها فقط الطبيعة السحرية التي لدى كل القطط، وكتيبة الجنود ثابتة كما يتمنى أي قائد عسكري في الواقع.

أما جيب..؟

فيجب أن أكون حذرًا معه ولا أقتل خياله.

لكنني تجاوزت معه مرة أكثر مما يجب وقلت:

- هل تجب أن يعود جنودك للحياة، ويسيرون من تلقاء أنفسهم؟

فقال جيب:

- إنهم يفعلون ذلك.. يجب فقط أن أقول الكلمة السرية قبل فتح الغطاء.

- ثم تدب فيهم الحياة؟!

- طبعًا يا أبي، ما كنت سأحبهم إن لم يكونوا يفعلون ذلك».

لم أظهر أي إنفعال غير مناسب وسكت، ومنذ ذلك قد أتججج بأي حجة لأفتح غرفته دون سابق إنذار، عندما يكون الجنود حوله، لكن حتى الآن لم يكن بهم أي شيء سحري قط.

ثم هناك أيضًا مسألة النقود. إنني رجل شريف ولن أرتاح حتى أدفع مقابل ألعاب ابني.

لقد مررت ذهابًا وإيابًا في شارع ريجنت عدة مرات، باحثًا عن ذلك المتجر، ولم أجده.

وثم في النهاية كي أريح ضميري فكرت أن هؤلاء القوم أيًا كانوا يعرفون اسم جيب الكامل وعنوانه، لذلك فمن الأفضل أن أنتظر إرسالهم فاتورتهم في الوقت الذي يناسبهم هم.

صانع الماس

بعض الأعمال قد أخرجتني في شارع تشنيسري إلى التاسعة مساءً، وبعد ذلك، نال مني صداد طفيف، لم أكن راغبًا في الترفيه أو أي عمل إضافي. المباني العالية لذلك الطريق الضيق المزدهم تركت جزءًا من السماء يتحدث عن ليلة صافية. وقررت أن أكمل الطريق قاصدًا الكورنيش، وأن أريح عيني وأصفي ذهني بمشاهدة الأنوار الملونة فوق النهر. بشكل لا يقارن الليل هو أفضل الأوقات في هذا المكان؛ ظلام رحيم يخفي وحل المياه، وأنوار هذا الزمن الانتقالي، أحمر برتقالي صارخ، وأصفر غازي، وأبيض كهربائي، ينشئون حدودًا مبهمًا لكل ظل ممكن بين الرمادي والأرجواني الداكن. خلال قناطر جسر وأترلو مئات النقاط من الضوء تبرز امتداد ضفة النهر، وفوق حاجز الجسر ترتفع أبراج وستمنستر، رمادي دافئ مقابل ضوء النجوم. وموج طفيف جدًا يتهدى بالنهر الأسود يقطع صمته، ويزعج انعكاسات الأضواء التي تسبح فوق سطحه.

قال صوت بجانبني: «ليلة دافئة».

أدركت رأسي، ورأيت الصورة الجانبية لرجل كان ينحني على سور الكورنيش بجواري. كان وجهًا مهذبًا، ليس قبيحًا، رغم أنه نحيف وشاحب بما يكفي، وياقة المعطف المرفوعة والمغلقة حول الرقبة حددت حالته في الحياة بصرامة زي رسمي. شعرت أنني أتعهد بثمان فراش وإفطار إذا ما أجبته.

نظرت إليه بفضول. ألدبه أي شيء يخبرني إياه يستحق المال، أم أنه عاجز تقليدي.. عاجز حتى عن حكاية قصته الشخصية؟ كانت هناك مساحة من ذكاء في جبهته وعينييه، وبعض الارتعاش في شفته السفلى ما جعلني أجيبه.

قلت: «دافئة جدًا.. لكن ليس لكلينا هنا».

قال وما زال ينظر عبر الماء: «لا.. إنها لطيفة بما يكفي هنا.. في هذه اللحظة».

استأنف بعد صمت: «إنه رائع، أن تجد مكانًا مريحًا جدًا كهذا في لندن. بعد أن يكون المرء قد احتاج وراء العمل طوال اليوم، وراء التقدم، الوفاء بالالتزامات، وتفادي الأخطار، لا أعلم ما قد يفعله المرء إن لم تكن هناك أركان هادئة كهذا». كان يصمت طويلًا بين الجمل. «من المؤكد أنك تعلم القليل عن شقاء العالم المضجر، وإلا ما كنت هنا. لكنني أشك في كونك مشغول البال للغاية ومتقرب القدمين مثلي... اللعنة! أحيانًا أشك في جدوى كل هذه المكابدة.

أشعر بالميل إلى رمي الأمر بأكمله وراء ظهري.. الاسم، الثروة والمكانة.. والعمل في أي تجارة متواضعة. لكنني أعلم أنني إذا تخليت عن طموحاتي.. بعدما عانيت كل هذا.. لن يتبقى لي سوى الندم بقية أيامي».

صار صامتًا. نظرت إليه باندھاش. لو أنني رأيت قط رجلًا شقيًا على نحو يائس سيكون الرجل الذي أمامي. كان أشعث وكان متسجًا، غير حليق ورث الثياب؛ بدا كما لو أنه ترك في صفحة غبار لأسبوع. وكان يتكلم معي عن الهموم المضجرة لأعمال كبيرة. ضحكت في الحال تقريبًا. إما أنه معتوه أو يسخر بسوداوية من فقره.

قلت: «إذا كانت الأهداف الكبرى والمواقع العليا.. لها مشاكلها من عمل شاق وقلق، فإن لها مكافآتها. النفوذ، القوة لفعل الخير، لمساعدة هؤلاء الأضعف والأكثر حاجة منا؛ وهناك حتى بعض المكافأة في المظهر...»

مزاحي تحت هذه الظروف كان ذا ذوق دنيء جدًا. تحدثت بهمز ولمز عن التباين بين مظهره وكلامه. كنت أسفًا حتى بينما أتحدث.

أدار نحو وجهي شرسًا لكن رصين جدًا. قال: «نسيت نفسي. بالتأكيد أنت لن تفهم».

سبرني للحظة. «لا شك أن الأمر عبثي للغاية. لن تصدقني حتى عندما أخبرك، لذا فإنه آمن بشكل ما أن أخبرك.

وسيكون من المريح أن أخبر شخصًا ما. في الحقيقة لدي مشروع كبير في يدي، عمل كبير للغاية. لكن هناك مشاكل حاليًا. الحقيقة هي... أنني أصنع الماس».

قلت: «أفترض.. أنك خالي عمل في الوقت الحالي؟»

قال بنفاد صبر: «لقد سئمت من كوني لست مصدقًا». وفجأة فك أزرار معطفه الرث وسحب حقيبة قماشية صغيرة كانت معلقة بحبل حول رقبته. أخرج منها حصة بنية. سلمها لي: «أتساءل إذا ما كانت لديك دراية كافية لتعرف ما هذه؟»

آنذاك، منذ سنة أو أكثر، كنت أشغل وقت فراغي بأخذ دبلومة في العلوم من لندن، لذا لدي معلومات متناثرة عن الفيزياء وعلم المعادن. الحصة لم تكن بخلاف ماسة خام من النوع الداكن، على الرغم من أنها كبيرة جدًا، تقريبًا بحجم مقدمة إبهامي. أخذتها، ورأيت أن لها شكل مجسم ثماني عادي، بأوجه منحنية تتميز بها معظم المعادن النفيسة. أخرجت مديتي وحاولت خدشها بلا جدوى. منحنيًا للأمام نحو مصباح الغاز، جربت الشيء نفسه على زجاج ساعتني فأحدثت عبره خطأ أبيض بمنتهى السهولة.

نظرت إلى محدثي بفضول متزايد: «إنها بالتأكيد تشبه ماسة إلى حد كبير. لكن، لو أنها كذلك، فإنها فرس بحر الماس، من أين حصلت عليها؟»

قال: «أخبرتك أنني صنعتها.. أعطني إياها».

أعادها إلى الحقيبة بسرعة وأغلق أزرار معطفه. همس فجأة بتلهف: «سأبيعها لك بمائة جنيه». عند ذلك عاد اشتباهي، الحصة قد تكون، بعد كل هذا، مجرد كتلة من تلك المادة متساوية الصلابة تقريبًا، الكوراندوم، بتشابه عَرَضي في المظهر مع الماس. أو إذا كانت ماسة، فكيف أتى بها، ولم يعرضها بمائة جنيه؟

نظر أحدا في عين الآخر. بدا متلهفًا، لكن بصدق. عند تلك اللحظة صدقت أنها ماسة يحاول بيعها. مع ذلك فإنني رجل فقير، مائة جنيه ستترك فجوة مرئية في ثروتي ولا رجل عاقل سيشتري ماسة على ضوء مصباح غاز من متسكع أشعث على ضمانته الشخصية فقط. ومع ذلك، ماسة بهذا الحجم استحضرت رؤية العديد من آلاف الجنيهات. فوق ذلك، فكرت، حجر كهذا يمكن وجوده بالكاد دون الإشارة إليه في كل كتاب عن الأحجار الكريمة، ومن ناحية أخرى استدعيت إلى عقلي قصصًا من جنوب أفريقيا عن سرقة الماس وتهريبه. تجاهلت مسألة الشراء مؤقتًا.

قلت: «كيف حصلت عليها؟»

«صنعتها».

لقد سمعت شيئًا عن مواسان، لكنني أعلم أن ماساته الصناعية كانت صغيرة جدًا. هزرت رأسي.

«يبدو أنك تعلم شيئًا ما عن هذا النوع من الصناعة. سأخبرك قليلًا عن نفسي. ربما بعد ذلك يمكن أن تفكر أفضل في الشراء». استدار وجعل ظهره للنهر، ووضع يديه في جيبيه. تنهد: «أعلم أنك لن تصدقني».

«الماس..» بدأ الحديث وأثناء ذلك فقد صوته النغمة المضطربة لمتسكع وانتحل شيئًا من نغمة سلسة لرجل مثقف. «يُصنع بفصل الكربون من المركب في ذوبان مناسب وتحت ضغط مناسب؛ الكربون يخرج متبلورًا، ليس كرصا أصود أو مسحوق متفحم، بل كماسات صغيرة. الكيميائيون قد عرفوا الكثير لسنوات، لكن لا أحد حتى الآن قد توصل إلى الذوبان الصحيح بالضبط لصهر الكربون، أو الضغط

الصحيح تمامًا لأفضل النتائج. وبناءً عليه فإن الماسات التي يصنعونها صغيرة وسوداء، ولا قيمة لها كمجوهرات. الآن أنا، تعلم، كرسيت حياتي لتلك المشكلة.. أعطيتها حياتي.

«بدأت العمل على شروط صنع الماسات عندما كنت في السابعة عشرة، والآن أنا في الثانية والثلاثين. بدا لي أن الأمر قد يستنفد كل تفكير رجل وطاقته لعشر سنوات، أو عشرين سنة، لكن، حتى لو كان كذلك، تظل النتيجة تستحق المشقة. افترض أن شخصًا توصل أخيرًا إلى المعادلة الصحيحة قبل أن يذاع السر وتصبح الماسات منتشرة كالفحم، قد يحقق هذا الشخص ملايين. ملايين!»

توقف باحثًا عن تعاطفي. عيناه ظهرتا جائعتين. قال: «تخيل.. أنني على حافة كل هذا، وهنا!»

استأنف: «كان لدي حوالي ألف جنيه عندما كنت في الواحدة والعشرين، وهذا، فكرت، مدعومًا بقليل من التعليم، سيبقي أبحاثي مستمرة. أنفقت سنة أو اثنتين في الدراسة، في برلين بالأخص، وبعد ذلك استمررت معتمدًا على نفسي.

السرية كانت مشكلتي. أنت تفهم، لو أنني أطلقت مرة ما كنت أفعل، قد يستحث اعتقادي بإمكانية الفكرة رجالًا آخرين؛ وأنا لا أدعي أنني عبقرى إلى حد اليقين من وصولي أولًا، في حالة سباق من أجل الاكتشاف. وأنت ترى أنه كان ضروريًا إذا قصدت حقًا صناعة مقدار من الماسات، ألا يعلم الناس أنها عملية صناعية فيكونوا قادرين على بلورة الماس بالطن. لذا وجب أن أعمل بمفردي.

في البداية كان لدي معمل صغير، لكن مع بدء موارد في النفاذ كان عليّ أن أجري التجارب في غرفة ضئيلة غير مجهزة تقع في حي كنتيش، حيث نمُت أخيرًا على فراش من القش على الأرض بين أدواتي. المال ببساطة صرفته، حرمت نفسي كل شيء باستثناء الأدوات العلمية. حاولت أن أبقى الأمور مستمرة ببعض التدريس، لكنني لست مدرسًا ممتازًا، وليس لدي مؤهل جامعي، ولا تعليم كثير جدًّا باستثناء الكيمياء، ووجدت أنني كان يجب عليّ إعطاء كثير من الوقت والجهد من أجل كمية قليلة من المال.

لكنني صرت أقرب وأقرب من الهدف. منذ ثلاث سنوات حللت مشكلة تركيب الذوبان، واقتربت من الضغط المناسب عن طريق وضع مركب الذوبان هذا مع مركب كربوني معين في ماسورة بندقية مغلقة، مملوءة بالماء، مختومة بإحكام، وتسخينها».

توقف.

قلت: «خطر للغاية».

«نعم، لقد انفجرت، وحطمت كل نوافذ وكثيرًا من أدواتي، لكنني حصلت على نوع من مسحوق الماس رغم كل شيء. متبعمًا مشكلة الوصول إلى ضغط كبير على الخليط المنصهر الذي كانت الماسات لتتبلور منه؛ وقعت على أبحاث داوبري في مختبر باريس للمساحيق والأملاح الصخرية. لقد فجر الديناميت في أسطوانة فولاذية مغلقة بإحكام، أقوى من التفجير، ووجدت أنه استطاع تحطيم صخور إلى طين ليس بخلاف ذلك الموجود في الشاطئ الجنوب أفريقي الذي توجد فيه الماسات. كان استنزافًا هائلًا لمواردي، لكنني حصلت على أسطوانة فولاذية صنعت لغرضي على نموذج داوبري. وضعت بها كل موادى ومتفجراتي، أشعلت نارًا في فرني، ووضعت به الهم بأكمله، و.. خرجت لنزهة».

لم أتمالك نفسي من الضحك على أسلوبه الواقعي. «ألم تفكر أنها قد تفجر المنزل؟ أكان هناك أناس آخرون في المكان؟»

قال، أخيرًا: «كان الأمر في مصلحة العلم.. كانت هناك عائلة بائع فواكه في الطابق الأسفل، وكاتب خطابات تسول في غرفة وراء غرفتي، وبائعنا ورد في الطابق الأعلى. ربما كان الأمر طائشًا قليلًا. لكن لعل بعضهم كان خارج المنزل.

«عندما عدت كان الشيء فقط حيث تركته، بين قطع الفحم المتوهجة. لم يحطم الانفجار الأسطوانة. وبعدئذٍ كانت أمامي مشكلة لأواجهها. أنت تعلم أن الوقت عنصر مهم في عملية التبلور. إذا سرعت العملية تكون البللورات صغيرة.. فقط بإطالة المدة تنمو لأي حجم. صممت أن أترك جهاز الفحم هذا مشتعلًا لسنتين، تاركًا الحرارة تهبط تدريجيًا خلال تلك المدة. وكنت حينها مفلستًا تمامًا! ومع نار كبيرة وإيجار غرفتي، وكذلك جوع معدتي، لم يكن لدي بنس في العالم.

«أستطيع إخبارك بصعوبة عن كل الظروف التي مررت بها بينما كنت أصنع الماسات. لقد بعثت جرائد، سبست أحصنة، فتحت أبواب سيارات. لعدة أسابيع عنونت أظرفة.

عملت مساعدًا لصاحب عربة بيع خضروات، واعتدت أن أدعو إلى البضاعة في جانب من الطريق بينما هو يدعو في الجانب الآخر.

«ذات مرة لم يكن لدي شيء أعمله على الإطلاق لأسبوع، وتسولت، يا له من أسبوع!

يومًا ما انطفأت النار ولم أكن أكلت شيئًا طوال النهار، وأعطاني شاب صغير يتنزه مع فئاته، ستة بنسات ليلفت النظر.

شكرًا للسماء على الزهو! ما أجمل رائحة محلات السمك! لكنني ذهبت وأنفقتها كلها على الفحم، واستعدت الفرن مضيئًا أحمر مرة أخرى، وبعد ذلك.. حسنا، الجوع يصنع من الرجل أحمق.

«أخيرًا، منذ ثلاثة أسابيع، تركت النار تخدم. أخذت أسطوانتي وفتحتها بينما لا تزال ساخنة جدًا لدرجة أنها حرقت يدي، وكشطت الكتلة المفتتة التي تشبه الحمم البركانية خارجًا بأزميل، ودقتها إلى مسحوق فوق صفيحة حديدية. ووجدت ثلاث ماسات كبار وخمس صغار. بينما أجلس على الأرض أدق، فُتح بابي، ودخل جاري، كاتب خطابات التسول. كان سكرانًا كعادته. قال: «مخرب». قلت: «أنت سكران». قال: «وعد فوضوي». قلت: «اذهب إلى أبيك». أعني أبا الأكاذيب. قال: «ليس من شأنك». وأعطاني غمرة مأكرة، وشهق، ومنحنياً على الباب، بعينه الأخرى على عمود الباب، بدأ يهذي كيف أنه كان يقتحم حجرتي، وكيف أنه قد ذهب إلى الشرطة ذلك الصباح، وكيف سجلوا كل شيء وجب عليه قوله.. قال: «سارق جوهرة». بعدئذٍ أدركت فجأة أنني في مأزق. إما ينبغي أن أخبر الشرطة بسرري الصغير، أو أعتقل كمخرب. لذا قمت لجاري وأخذت بياقته، ودفعته قليلًا، ثم جمعت ماساتي وهربت. جرائد المساء وصفت معلمي أنه مصنع قنابل حي كنتيش. والآن لا أستطيع استغلال الماسات في الحب أو جني المال.

«إن ذهبت إلى جواهرجي محترم يطلب مني الانتظار، ويذهب ويهمس لموظف أن يجلب شرطياً، ومن ثم أقول أنني لا يمكنني الانتظار. عثرت على تاجر بضائع مسروقة، وببساطة احتجز ماسة أعطيتها إياها وأخبرني أن أقاضيه إن أردت استعادتها. أنا الآن أتجول بماسات حول رقبتني تساوي بضعة مئات الآلاف من الجنيهات، ومن دون طعام ولا مأوى. أنت أول شخص يكتسب ثقتي. لكنني أستريح لوجهك وأنا طموح جدًا».

نظر إلى عيني.

قلت: «سيكون جنوًا مني أن أشتري ماسة تحت هذه الظروف. بجانب، أنني لا أتجول حاملًا مئات الجنيهات في جيبي. مع ذلك أصدق قصتك بنسبة كبيرة. سوف، إذا أحببت، أفعل هذا: تعال إلى مكتبي غدًا...»

قال بشكل قاطع: «أنت تعتقد أنني لص.. سوف تبلغ الشرطة. أنا لن آتي إلى فخ».

«بطريقة ما أنا على يقين أنك لست لصًا. ها هو عنواني. خذ تلك البطاقة، على أي حال. لست مضطرًا أن تأتي في موعد محدد. تعال عندما تريد».

أخذ البطاقة، وعربوًا يثبت جديتي.

هز رأسه بشكل مبهم. قال: «يومًا ما سأرد لك نصف الكرونة تلك بفوائد، فوائد كبيرة ستذهلك.. على أي حال، هل ستبقي السر؟

لا تتبعني».

عبر الطريق وذهب إلى الظلام نحو الدرج القليل تحت القنطرة التي تقود إلى شارع إيسيكس، وأنا تركته يمضي. وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

فيما بعد وصلني منه خطابان يطلب مني أن أرسل أموالاً نقدية وليس شيكات إلى عنوان بعينه. اعتبرت المسألة وأخذت ما ارتأيت أنه المسار الأكثر حكمة.

ذات مرة سألت عني عندما كنت بالخارج.

وصفه خادمي كرجل أشعث، متسخ، نحيف جدًا، ذي سعال مروع. لم يترك رسالة. تلك كانت نهايته حتى الآن في قصتي المستمرة. أتساءل أحيانًا عما قد صار له.

أكان عبقريًا مهووسًا؟ أم تاجرًا محتالًا في الحصى، أم أنه حقًا صنع الماس كما أكد؟

الاحتمال الأخير ممكن تصديقه بما يكفي لجعلي أفكر أحيانًا أنني فقدت أذكى فرصة في حياتي. ربما يكون ميثًا بالتأكيد، وماساته ملقاة بجانبه بإهمال.. إحداهن، أكرر، كانت في حجم مقدمة إبهامي تقريبًا. وربما لا يزال يتجول محاولًا بيع الماسات.

من الممكن تمامًا أن يظهر في المجتمع بعد، و، يمر معترضًا سماواتي في الرقي الهادئ مرتفعًا إلى الأثرياء والمشاهير، يلومني بصمت على حاجتي للمغامرة. أحيانًا أفكر أنه كان يمكنني على الأقل أن أخاطر بخمسة جنيهات.

صانع المعجزات

إنه محل شك ما إذا كانت موهبته فطرية. بالنسبة لي، أعتقد أنها جاءت على نحو مفاجئ. حقًا، حتى بلغ الثلاثين كان شكوكيًا، ولم يؤمن بالقوى الإعجازية. وهنا، بما أنه أكثر مقام مناسب، لا بد أن أشير إلى أنه كان رجلًا ضئيلاً، لديه عيان ذواتا لون بني فاتح، وشعر أحمر خشن للغاية، وشارب بنهائيتين يفتلها للأعلى، ونمش. اسمه جورج مكارتر فودرنجي.. ليس من نوع الأسماء الموحية بأي توقعات لمعجزات على أي حال.. وكان موظفًا في متجر جومشوت. كان مدمنًا بشكل كبير على الجدالات الجازمة.

ولاحظ قواه الاستثنائية أول مرة أثناء ما كان يحزم باستحالة المعجزات.

هذه المناقشة تحديدًا كانت تقام في حانة لونج دراجون، وكان تودي ييميش يدير المعارضة بهذه الجملة: «هذا رأيك».. باطراد ممل لكن فعال، ذلك قاد السيد فودرنجي إلى آخر حدود صبره.

كان من الحضور، بجانب هذين الاثنين، راكب دراجات مغبر جدًا، وكوكس صاحب الحانة، السيدة مايردج، ساقية حانة لونج دراجون التي تنال احترامًا بالغًا ولها هبة كبيرة. كانت السيدة مايردج تقف مولية ظهرها للسيد فودرنجي، تغسل الكؤوس؛ الآخرون كانوا يشاهدونه، في تسلية إلى حد ما بعدم الفاعلية البادية للطريقة الجازمة. مدفوعًا بتكتيكات تورييس فيدارس التي يستخدمها السيد ييميش، عزم السيد فودرنجي على تقديم جهد بلاغي غير تقليدي.

قال: «انظر هنا، سيد ييميش.. دعنا نفهم بوضوح ما المعجزة. إنها شيء معاكس لمجرى الطبيعة، مصنوع بقوة الإرادة، شيء لا يمكن حدوثه دون إرادة خاصة».

قال السيد ييميش رادًا إياه: «هذا رأيك».

استغاث السيد فودرنجي براكب الدراجات، الذي كان حتى تلك اللحظة مستمعًا صامتًا، واستقبل مصادقته.. معطاة بسعال متردد ونظرة إلى السيد ييميش. لم يعبر صاحب الحانة عن رأي، فعاد السيد فودرنجي إلى السيد ييميش، استقبل تنازلًا غير متوقع بموافقة حذرة على تعريفه للمعجزة.

قال السيد فودرنجي بتشجع كبير: «على سبيل المثال.. هنا قد تكون معجزة. مصباح الغاز هذا، في المجرى الفطري للطبيعة، لا يمكن أن ينير هكذا إذا قلب رأسًا على عقب، هل يمكن ذلك، ييميش؟»

قال ييميش: «أنت تقول، لا يمكن».

قال فودرنجي: «وأنت؟ لا تعني أن تقول.. إيه؟»

قال ييميش مترددًا: «لا، لا، لا يمكن أن ينير».

قال السيد فودرنجي: «حسنًا جدًا.. ثم يأتي شخص ما، قد يكون أنا مثلاً، أمام المصباح هنا، مستجمعًا كل إرادتي.. «استدر رأسًا على عقب دون أن تنكسر، واستمر في الإضاءة ثابتًا» و، يا للهول!»

كان ما حدث كافيًا لجعل أي أحد يقول: «يا للهول!». المستحيل، الذي لا يمكن تصديقه، كان مرئيًا لهم جميعًا. المصباح معلق معكوس في الهواء، منيرًا تمامًا بشعلته مؤشرة للأسفل. كان ثابتًا، ولا يقبل الجدل أبدًا كأي مصباح، من مصابيح حانة لونج دراجون العادية المألوفة.

وقف السيد فودرنجي بإصبع سبابة ممتد وحاجبين معقودين لشخص يستيق إخفاقًا كارثيًا. فزع راكب الدراجات وقفز عبر الحانة. الجميع قفزوا، إلى حد ما. استدارت السيدة مايردج وصرخت. ظل المصباح ساكنًا لثلاث ثوانٍ تقريبًا. ندت صرخة ضعيفة من السيد فودرنجي في محنته العقلية. قال: «لا أستطيع إبقائه عاليًا.. أكثر من ذلك». ترنج إلى الخلف، وتوهج المصباح المعكوس فجأة، سقط في ركن الحانة، وثب جانبًا، متحطمًا فوق الأرضية، ومنطفئًا.

من حسن الحظ أنه سقط على معدن، وإلا لكانت الحانة بأكملها قد احترقت. كان السيد كوكس أول من تحدث، وكان معنى تعليقه، الخالي من الحواشي غير الضرورية، أن فودرنجي أحمق. أما فودرنجي فقد كان أبعد ما يكون عن الجدل حتى لو كان الطرح أساسيًا للغاية كذلك!

كان مذهولًا بلا حدود مما قد حدث. لم تلق المحادثة اللاحقة ضوءًا على الأمر إطلاقًا من وجهة نظر فودرنجي؛

الرأي العام لم يتبع السيد كوكس بطريقة مؤيدة للغاية فقط ولكن بطريقة متعصبة. اتهم الجميع فودرنجي بالخداع السخيف، وقدموه، لنفسه، كمدمر أحمق للراحة والأمان. كان عقله في إعصار من الحيرة، كان هو نفسه مائلًا لأن يوافقهم، وقام بمعارضة غير فعالة بشكل ملحوظ لمقترح مغادرته.

ذهب إلى منزله محتقن الوجه ومنفعلًا، ياقة معطفه مجمدة، عيناه متسعتان وأذناه حمراوان. نظر إلى كل مصباح من مصابيح الشارع العشرة بعصبية وهو يجتازها. فقط عندما وجد نفسه وحيدًا في حجرة نومه الصغيرة في شارع الكنيسة كان قادرًا على إمساك ذكريات الحدث بجدية، وسأل: «ماذا حدث بحق؟»

قد خلع معطفه وحذاه، وجلس على السرير بيديه في جيبه مكرّرًا نص دفاعه للمرة السابعة عشرة: «لم أرد قلب المصباح ولم أتوقع».

عندما خطر له أنه في اللحظة التي قال فيها الكلمات الآمرة كان مريدًا عن غير قصد الشيء الذي قاله؛ ولذا عندما رأى المصباح في الهواء شعر أن أمر إبقائه معلقًا يتوقف عليه دون أن يكون واضحًا كيف لهذا أن يحدث.

لم يكن لديه عقل مركب بشكل خاص، أو قد يكون اعتنق هنيهة ذلك الاصطلاح: «مريدًا عن غير قصد»، بتلك الطريقة، أتت إليه الفكرة بغموض مقبول بالكامل، رغم إشكاليات الحدث الطوعي العويصة. ومن ذلك، لم يتتابع، كما يجب أن أعترف، أي تسلسل منطقي واضح، لكنه قرر سلوك المنهج التجريبي.

أشار بعزم إلى شمعته واستجمع تركيزه، رغم شعوره أنه يفعل شيئًا أحمق. قال: «ارتفعي عاليًا». لكن ذلك الشعور اختفى في ثانية. ارتفعت الشمعة، معلقة في الهواء للحظة خاطفة، وبينما يلهث السيد فودرنجي، سقطت مصطدمة بمنضدته، تاركة إياه في الظلام باستثناء توهج فتيلها المنقضي.

جلس السيد فودرنجي في الظلام هنيهة، ساكنًا تمامًا. قال: «لقد حدث الأمر، على أي حال.. وكيف سأفسره لا أعلم». تنهد بقوة، وبدأ يبحث في جيوبه عن ثقاب كبيريت. لم يستطع العثور على ثقاب، ونهض وتحسس المنضدة. قال: «أتمنى أن يكون لدي ثقاب». لجأ إلى معطفه، ولم يجد به، ومن ثم بزغ في عقله أن المعجزات ممكنة حتى مع الثقاب. مد يده وقطب جيبه في الظلام.

قال: «لتكن في تلك اليد ثقاب». شعر بشيء خفيف يهبط فوق راحته، وأغلق أصابعه على ثقاب».

بعد بضع محاولات فاشلة لإشعال هذا، اكتشف أنه ثقاب أمان. رماه على المنضدة، وبعدئذ خطر له أنه قد أراده مشتعلًا. قد فعل ذلك، ولاحظه يشتعل في منتصف مفرش منضدته. التقطه بسرعة، وانطفأ. اتسع إدراكه لاحتمالات، وتحسس المنضدة واضعًا الشمعة في شمعدانها. قال: «هنا! اشتعلي». وفورًا توهجت الشمعة، ورأى في غطاء المنضدة حفرة كبيرة واسعة، يرتفع منها خيط دخان. حرق قليلًا من هذا إلى اللهب الصغير والعكس، ومن ثم رفع بصره وقابل نظراته المحدقة في المرأة. وعلى ضوء الشمعة ناجى نفسه في صمت لبعض الوقت.

قال السيد فودرنجي أخيرًا، مخاطبًا انعكاسه في المرأة: «ماذا عن المعجزات الآن؟»

كانت التأملات اللاحقة للسيد فودرنجي تصويرًا متجهًا لكن حائرًا. حتى الآن، استطاع رؤية أنها حالة قوة إرادة لديه. طبيعة تجاربه حتى الآن جعلته غير راغب في أي تجارب إضافية، على الأقل حتى يعيد اعتبار

أمر هذه التجارب. إلا أنه رفع قطعة ورق، وحوّل كوب ماء إلى اللون القرنفلي ثم إلى اللون الأخضر، وأنشأ حلزونيًا، ثم أباده بمعجزة، وحصل لنفسه على فرشاة أسنان جديدة بمعجزة.

بعد ساعات قليلة توصل إلى حقيقة أن قوة إرادته لا بد أنها نادرة ومن نوع حاد بشكل خاص، حقيقة قد لمحها من قبل بالطبع، لكن بلا يقين قاطع. تحول فزع اكتشافه الأول وارتبأكه إلى زهو بهذا البرهان على التفرد وبلجمات الامتياز الغامضة. سمع ساعة الكنيسة تدق الواحدة، ولم يخطر بباله أن واجباته اليومية في متجر جومشوت قد يتم التخلي عنها بمعجزة، فاستأنف خلع ملابسه؛ لكي ينام دون أي تأخير إضافي. وبينما يصارع لتمرير القميص فوق رأسه، خطرت له فكرة لامعة. قال: «فلأكن في السرير»، ووجد نفسه كذلك. اشترط: «بلا ملابس»؛ وجد الملاءات باردة؛ فأضاف سريعًا، بمتعة هائلة: «في منامتي.. لا، في منامة صوف ناعمة لطيفة. أه! والآن دعني أعط في النوم...»

استيقظ في ساعته المعتادة وكان مشغول البال طوال وقت الإفطار، يتساءل ما إذا كان اختبار الليلة الفائتة حلمًا حيًا بشكل خاص. أخيرًا تحول عقله مرة أخرى إلى بعض التجارب الحذرة. مثلًا، تناول ثلاث بيضات في الإفطار؛ اثنتين منها قد زودته بهما مالكة البيت، جديتين لكن من السوق، وواحدة كانت بيضة أوز طازجة شهية، مطبوخة، ومقدمة بإرادته الاستثنائية. أسرع إلى متجر جومشوت يخفي بحرص إنثارتها العميقة، ولم يتذكر قشر البيضة الثالثة إلا عندما تحدثت عنه مالكة البيت بالليل.

لم يستطع القيام بعمل طوال النهار بسبب ذهوله من معرفته الذاتية الجديدة، لكن هذا لم يتسبب له في إزعاج؛ لأنه تدبر الأمر بمعجزة في آخر عشر دقائق.

مع انتهاء اليوم عبرت حالة عقله من التعجب إلى الابتهاج، ولو أن ظروف طرده من حانة لونج دراجون ما زال تذكرها غير مقبول، وقد وصلت رواية مشوشة عن الأمر إلى زملائه أدت إلى بعض المزاح. كان جليًا أنه لا بد أن يكون حريصًا وهو يرفع المواد القابلة للكسر، لكن بطرق أخرى بشرت موهيبته بأكثر وأكثر بينما يفكر فيها. نوى بين أشياء أخرى أن يزيد ملكيته الشخصية بأفعال خلق متباهية. دعا بوجود زوج من الأزرار الماسية البديعة للغاية، وبسرعة أبادهما مرة أخرى عندما أتى جومشوت الصغير عبر مكتب المحاسبة إلى مكتبه.

كان خائفًا أن جومشوت الصغير قد يتساءل كيف أتى بهما. رأى بشكل واضح تمامًا أن التدريب على الموهبة يتطلب حدًا وبقطة، وما دام يستطيع الحكم على الصعوبات التي تواجه إتقانها فلن تكون أكبر من تلك التي واجهها بالفعل في تعلم ركوب الدراجات. كان ذلك التشبيه، ربما، تأمًا بقدر عدم ترحيبه بمشاعر حانة لونج دراجون، قاده ذلك بعد العشاء خارجًا إلى شارع خلف منشأة غاز؛ ليتمرن على قليل من المعجزات في خصوصية.

من المحتمل أن محاولاته كان بها إرادة إبداع معينة؛ فبصرف النظر عن قوة إرادته لم يكن السيد فودرنجي رجلًا استثنائيًا. أتت إلى عقله معجزة عصا موسى، لكن الليل بظلامه كان غير ملائم للتحكم الصحيح في ثعابين ضخمة إعجازية.

ثم تذكر قصة «تانهاوزر» التي كان قد قرأها على ظهر برنامج أوركسترا مطبوع. بدا له ذلك جذابًا وغير مؤذٍ بشكل شخصي. غرس عصا المشي خاصته –عصا لطيفة مصنوعة من خشب النخيل- في الطبقة العشبية التي تحد الرصيف، وأمر الخشب الجاف أن يزهر.

امتلاً الهواء بعطر الزهور في الحال، وبواسطة ثقاب رأي بنفسه أن هذه المعجزة الجميلة تم إنجازها بالفعل. انتهى رضاه بسماعه لخطوات قادمة. خاطب العصا المزهرة على عجل، خائفًا من اكتشاف مبكر لقواه: «أذهبي إلى الوراء» وما قصده كان: «تغيري إلى ما كنت» لكنه بالتأكيد كان مرتبًا.

تراجعت العصا بسرعة كبيرة، وأتت صيحة غضب وكلمة سيئة من شخص يقترب ساخطًا. صرخ الصوت: «من الذي تلقي عليه شجرة شائكًا، أنت أحمق؟ لقد أصابني في قصبة ساقي».

قال السيد فودرنجي: «أنا آسف، أيها العجوز». وبعدها أمسك شاربه بعصبية، مدرّكًا الطبيعة غير الملائمة للتفسير. رأى وينش، واحدًا من الثلاثة شرطيين في المنطقة، يتقدم.

سأل الشرطي: «ماذا تعني بهذا؟ أهلاً! إنه أنت، أليس كذلك؟ الشخص الذي كسر المصباح في حانة لونج دراجون!»

قال السيد فودرنجي: «لم أقصد أي شيء بهذا.. لا شيء إطلاقًا».

«لماذا فعلت هذا إذًا؟»

قال السيد فودرنجي: «أوه، لا تزعج نفسك».

«لقد انزعجت حقًا! هل تعلم أن تلك العصا تؤدي؟ لماذا فعلت هذا، إه؟»

حتى تلك اللحظة لم يستطع السيد فودرنجي التفكير في سبب فعل هذا. بدا أن صمته يثير السيد وينش. «أنت تتهجم على الشرطة، أيها الشاب، هذه المرة. ذلك ما قد فعلت».

قال السيد فودرنجي، منزعًا ومرتبكًا: «انظر هنا، سيد وينش.. أنا آسف جدًّا. الحقيقة هي..»

«حسنًا؟»

لم يستطع التفكير في شيء غير الصدق. «كنت أصنع معجزة».. حاول أن يتحدث بطريقة تلقائية، لكنها كانت محاولة فاشلة.

«تصنع م...! إر، لا تتفوه بالهراء. تصنع معجزة، حقًا! معجزة! حسنًا، هذا مضحك بكل معنى الكلمة! بسبب، أنك الرجل الذي لا يؤمن بالمعجزات.. الحقيقة أن، هذه واحدة من حيلك المشعوذة السخيفة.. ذلك ما تفعل. الآن، أخبرك..»

لكن السيد فودرنجي لم يسمع مطلقًا ما كان السيد وينش سيقوله. أدرك أنه سيسلم نفسه، قد رمى بسرّه الثمين إلى كل رياح السماء. دفعته عصفة عنيفة من الغضب إلى التصرف. استدار إلى الشرطي بسرعة وبشراسة. قال: «هنا.. لقد اكتفيت من هذا، اكتفيت! سأريك حيلة مشعوذة سخيفة، سوف! اذهب إلى الجحيم! اذهب، الآن!»

صار وحيّدًا!

لم يؤد السيد فودرنجي معجزات أكثر تلك الليلة ولا خلق مشاكل ليرى ماذا قد حدث لعصاه المزهرة. عاد إلى المدينة، خائفًا يترقب، وذهب إلى حجرة نومه. قال: «يا رب! إنها حقًا موهبة رهيبة.. موهبة شديدة القوة. أنا لم أقصد الأمر بذاك القدر. ليس إلى تلك الدرجة.. إنني أتساءل ما شكل الجحيم!»

جلس على السرير يخلع حذاءه. وقد خطرت له فكرة سعيدة نقلت الشرطي إلى سان فرانسيسكو، ودون أي تدخل إضافي في المسببات الطبيعية استلقى بواقعية على الفراش. في الظلام حلم بغضب وينش.

سمع السيد فودرنجي في اليوم التالي خبرين مثيرين للاهتمام. شخص ما قد زرع نبتة متسلقة في غاية الجمال أمام منزل جومشوت الكبير الخاص في شارع لولابرو، والنهر قد تم تمشيّطه حتى منطقة لورينج ميل بحثًا عن الشرطي وينش.

كان السيد فودرنجي شاردًا ومستغرقًا في التفكير طوال اليوم، ولم يؤد معجزات باستثناء بعض الزاد لوينش، ومعجزة إكمال عمل يومه في الموعد الدقيق رغم سرب نحل الأفكار الذي طنطن خلال عقله.

ولوحظ أسلوبه الداهل والخانع بشكل استثنائي من قبل البعض، فكان مادة للضحك. كان معظم تفكيره في وينش.

في مساء الأحد ذهب إلى الكنيسة، وبشكل غريب جدًا وعظ السيد مايدج، الذي يعطي اهتمامًا خاصًا للأمور الخفية، عن «الأشياء غير القانونية». لم يكن السيد فودرنجي مرتادًا نظاميًا للكنائس، لكن نظام الشكوكية الجازمة، الذي أشرت له بالفعل، كان الآن متزلزلًا جدًا. مغزى العظة ألقى ضوءًا جديدًا بالكامل على هذه المواهب الجديدة، وقرر فجأة أن يستشير السيد مايدج بعد القداس مباشرة. بمجرد ما عزم على ذلك، وجد نفسه يتساءل لِمَ لَمْ يفعل هذا من قبل.

السيد مايدج، رجل نحيف، سريع الانفعال بمعصمين طويلين ورقبة طويلة بشكل ملحوظ، كان مسرورًا بطلب محادثة خاصة من شاب لا يبالي بالأمور الدينية كما هو ملاحظ بشكل عام في المدينة. بعد قليل من التأجيلات الضرورية، قاده إلى حجرة المكتب في منزله، الملحق بالكنيسة، أجلسه بارتياح، وواقفًا أمام نار المدفأة -قدماه ألقيا قوسًا روديانيًا من الظل على الحائط المقابل- طلب من السيد فودرنجي أن يعرض أمره.

في البدء كان السيد فودرنجي خجولًا قليلًا، ووجد بعض الصعوبة في فتح الموضوع. «من الصعب أن تصدقني، سيد مايدج، أنا أخشى..» وهكذا لبعض الوقت. حاول أخيرًا أن يسأل سؤالًا، وسأل السيد مايدج عن رأيه في المعجزات.

لم يزل السيد مايدج يقول: «حسنًا» بنغمة قضائية مفرطة، عندما قاطعه السيد فودرنجي قائلاً مرة أخرى: «لن تصدق، أفترض، أن شخصًا عاديًا للغاية -مثلي، مثلاً- قد يكون جالسًا هنا الآن، يملك نوعًا ما من القوة بداخله تجعله قادرًا على فعل أي شيء بإرادته».

قال السيد مايدج: «إنه ممكن.. شيء من هذا القبيل، ربما، يكون ممكنًا».

قال السيد فودرنجي: «إذا كان يمكنني أخذ حريتي مع شيء هنا، أعتقد أنني قد أريك بالتجربة العملية.. الآن، خذ برطمان التبغ هذا على المنضدة، مثلاً. ما أريد معرفته هو ما إذا كان ما سأفعله به معجزة أم لا. نصف دقيقة فقط، سيد مايدج، من فضلك».

عقد حاجبيه، أشار إلى برطمان التبغ وقال: «كن مزهريه بنفسج».

فعل برطمان التبغ كما أمر.

جفل السيد مايدج بعنف من التغير، ووقف ينظر من الرجل الذي استطاع صنع المعجزات إلى مزهريه الورد. لم يقل شيئًا.

خاطر بعد حين بالانحناء فوق المنضدة وشم زهور البنفسج؛ كانت ملتقطة حديثًا وبانعة جدًا. ثم حدق في السيد فودرنجي مرة أخرى.

سأل: «كيف فعلت ذلك؟»

سحب السيد فودرنجي شاربه. «أمرته فحسب.. وها أنت. أتلك معجزة، أم سحر أسود، أم ماذا تكون؟ وماذا تعتقد الأمر معي؟ ذلك ما أريد أن أسأل».

«إنه الحدث الأكثر استثنائية».

«وفي مثل هذا اليوم الأسبوع الماضي لم أكن أعلم أكثر منك أنني أستطيع فعل أشياء كذلك. الأمر أتى مفاجئًا تمامًا. إنه شيء غريب بشأن إرادتي، أفترض، وهذا بقدر ما أستطيع أن أرى».

«أذلك.. الشيء الوحيد؟ أستطعت فعل أشياء أخرى بجانب ذلك؟»

قال السيد فودرنجي: «مولاي، نعم! أي شيء على الإطلاق». فكّر، وفجأة تذكر عرضًا سحريًا ترفيهيًا كان قد رآه. «هنا!» أشار: «تغيري إلى إناء سمك.. لا، ليس ذاك.. تغيري إلى حوض زجاجي مملوء بالماء تنسج فيه أسماك ذهبية. هذا أفضل! أترى ذلك، سيد مايدج؟»

«إنه مذهل. إنه لا يصدق. إما أنك الأكثر استثنائية... لكن لا..»

قال السيد فودرنجي: «أستطيع تغييره إلى أي شيء.. أي شيء على الإطلاق. هنا! كوني حمامة، هلا تفعلين؟»

في لحظة أخرى كانت حمامة زرقاء ترفرف داخل الحجرة وتجعل السيد مايدج يتفادها كل مرة تقترب نحوه. قال السيد فودرنجي: «توقفي هنا، هلا تفعلين!» وتعلقت الحمامة في الهواء بلا حراك. قال: «أستطيع تحويلها مرة أخرى إلى مزهرية ورود»، وبعد عودة الحمامة إلى المنضدة صنع تلك المعجزة. قال: «أتوقع أنك ستريد غليونك بعد قليل»، واسترجع برطمان التبغ.

تابع السيد مايدج كل التغيرات السابقة بنوع من الصمت المعبر. حدق في السيد فودرنجي و، بأسلوب شديد الحذر، التقط برطمان التبغ، فحصه، أعاد وضعه على المنضدة. وكان التعبير الوحيد عن مشاعره: «حسنًا!»

قال السيد فودرنجي: «الآن، بعد ذلك إنه أسهل أن أشرح ما حدث لي». وياشر في رواية طويلة ومتشعبة لتجاربه الغربية، بادئًا بحادثة المصباح في حانة لوني دراجون ومُطوّرًا الرواية بتلميحات مستمرة لحادثة وينش. بينما يحكي، تلاشى زهو العابر الذي سببته دهشة السيد مايدج؛ صار مرة أخرى السيد فودرنجي العادي جدًا كما هو في علاقاته اليومية. استمع إليه السيد مايدج بعناية، برطمان التبغ في عقله، واتجاهه تغير أيضًا مع مجرى الحكى. بعد حين، عندما كان السيد فودرنجي يروي معجزة البيضة الثالثة، قاطعه القسيس بيد مرفرفة..

قال: «إنه ممكن.. إنه قابل للتصديق. إنه مذهش، بالطبع، لكنه يصلح عددًا من الصعوبات العظيمة. قوة صنع المعجزات موهبة.. خاصية مميزة مثل العبقرية والاستبصار.. حتى الآن قد أنت بندرة شديدة ولأناس استثنائيين. لكن في هذه الحالة... لقد تساءلت دائمًا عن معجزات محمد، ومعجزات اليوغيين، ومعجزات مدام بلافاتنسكي.

لكن، بالتأكيد! نعم، إنها ببساطة موهبة! هذا يجري بشكل جميل للغاية أطروحات ذلك المفكر العظيم» انخفض صوت السيد مايدج: «نيافته دوق أرجيل.

هنا نحن نسبر قانونًا عميقًا ما.. أعمق من قوانين الطبيعة العادية. نعم.. نعم. استمر. استمر!»

واصل السيد فودرنجي حكى بليته مع وينش، والسيد مايدج، لم يعد فزعًا أو خائفًا، بدأ يدير أطرافه ويبيدي دهشته. استأنف السيد فودرنجي: «إن هذا أكثر ما يزعجني.. إن هذا أكثر ما أريد النصح بشأنه؛ بالتأكيد هو في سان فرانسيسكو - أينما قد تكون سان فرانسيسكو- لكنه بالطبع مزعج من كلينا، كما سترى، سيد مايدج.

أنا لا أدري كيف يمكنه فهم ما قد حدث، وأستطيع القول أنه خائف وساخط بدرجة هائلة، ويحاول أن ينال مني.

أستطيع القول أنه يستمر في الانطلاق إلى هنا.

أنا أعيده، بمعجزة، كل بضع ساعات، عندما أفكر في هذا. وبالطبع، ذلك شيء لن يكون قادرًا على فهمه، ويتسبب في إزعاجه؛ وبالتأكيد، لو أنه يقطع تذكرة كل مرة فسوف يكلفه هذا الكثير من المال. أنا فعلت ما بوسعي لأجله، لكن بالتأكيد إنه من الصعب عليه أن يضع نفسه مكاني.

فكرت فيما بعد أن ملابسه قد تكون شاطط، تعلم - لو أن الحليم تمامًا كما يفترض أن يكون- قبل أن أنقله. في تلك الحالة أفترض أنهم قد يسجنونه في سان فرانسيسكو. بالطبع أردت له بدلة جديدة فور أن فكرت بهذا. لكن كما ترى، أنا بالفعل في ورطة كبيرة..»

نظر السيد مايدج بجدية: «أرى أنك في ورطة. نعم، إنه موقف صعب. كيف تنهيه...» صار مشتتًا وغير حاسم.

«مع ذلك، سنترك وينش قليلًا ونناقش السؤال الأكبر. أنا لا أعتقد أن هذه حالة من السحر الأسود أو شيئًا من هذا القبيل. لا أعتقد أن هناك أي شبهة إجرام بشأن هذا إطلاقًا، سيد فودرنجي.. لا شيء من هذا، ما لم تكن تطمس حقائق مادية. لا، إنها معجزات.. معجزات نقية.. معجزات، إن جاز التعبير، من الرتبة الأعلى جدًّا».

بدأ يخطو على سجادة المدفأة ويشرح بيده، بينما جلس السيد فودرنجي واضعًا ذراعه على المنضدة ورأسه فوق ذراعه، يبدو قلقًا. قال: «أنا لا أدري كيف أتدبر أمر وينش».

قال السيد مايدج: «موهبة صنع المعجزات.. موهبة قوية جدًّا كما هو واضح.. ستجد طريقة بشأن وينش.. لا تخف. سيدي العزيز، أنت رجل مهم للغاية.. رجل بإمكانات مدهشة للغاية. كما برهنت، بالمثال! وبطرق أخرى، الأشياء التي قد تفعلها..»

قال السيد فودرنجي: «نعم، لدي فكرة عن شيء أو اثنين.. لكن.. بعض الأشياء تأتي ملتوية قليلًا. أرايت تلك الأسماك في البداية؟ نوع خاطئ من الأحواض ونوع خاطئ من الأسماك. وفكرت أنني قد أسأل شخصًا ما».

قال السيد مايدج: «مسار صحيح.. مسار صحيح جدًّا.. مسار صحيح تمامًا». توقف ونظر إلى السيد فودرنجي: «إنها موهبة غير محدودة تقريبًا. دعنا نختبر قواك، مثلًا. لو أنها حقيقية.. لو أنها حقيقية تمامًا كما تبدو».

والتالي، غير قابل للتصديق كما قد يبدو، ففي حجرة المكتب بالمنزل الصغير الملحق بالكنيسة الأبرشانية، في مساء الأحد، ١٠ نوفمبر ١٨٩٦، بدأ السيد فودرنجي بتشجيع وإلهام من السيد مايدج في صنع المعجزات. لا شك أن التاريخ خاصّة جذب انتباه القارئ.

سيعترض القارئ، ربما اعترض بالفعل، بأن بعض النقاط في هذه القصة مستحيلة، ولو أن أي شيء مما وُصف بالفعل قد حدث حقًا، لكان في كل الصحف منذ سنة.

سيجد القارئ أن من الصعب قبول التفاصيل اللاحقة خاصّة؛ لأنها تتضمن بين أشياء أخرى استنتاج أن القارئ المتسائل، لا بد أنه قد مات منذ سنة بطريقة عنيفة وغير مسبوقه. الآن، المعجزة لا شيء إن لم تكن مستحيلة، وفي الحقيقة فإن القارئ قد مات منذ سنة بطريقة عنيفة غير مسبوقه. سيصير هذا واضحًا وممكن تصديقه تمامًا في السياق اللاحق لهذه القصة، كما سيعترف كل قارئ قويم الرأي ومسؤول. لكن هذا ليس موضع نهاية القصة، ما زلنا بعد المنتصف بقليل.

وفي البدء كانت المعجزات التي صنعها السيد فودرنجي معجزات صغيرة واهنة.. مع أشياء صغيرة كالأكواب وقطع أثاث الحجر، ضعيفة كمعجزات الثيوصوفيين، وبقدر ضعف تلك المعجزات، استقبلها معاونه برهبة. كان ليفضل حسم مسألة وينش وإخلاء يده منها، إلا أن السيد مايدج لم يتركه يفعل ذلك. لكن بعدما صنعا دزينة من هذه المعجزات المنزلية المبتدلة، نما شعورهما بالقوة، بدأ خيالهما يظهر علامات تحفز، وكبر طموحهما.

أول مغامرة كبيرة كانت نتيجة الجوع وإهمال السيدة مينشين، مديرة منزل السيد مايدج. كانت الوجبة التي طلبها القسيس للسيد فودرنجي مقدمة بشكل سيئ تمامًا وغير لائقة كوجبة خفيفة لصانعي

معجزات مجتهدين؛ لكنهما كانا جالسين، والسيد مايدج يشكو من عيوب مديرة منزله في أسى أكثر منه غضب.

قبل أن يخطر للسيد فودرنجي أنها فرصة متاحة أمامه.

قال: «ألا تظن، سيد مايدج.. لو أن هذا ليس تجاوزًا للحدود، أنني..»

«عزيزي السيد فودرنجي! بالتأكيد! لا.. لا أراه كذلك».

أشار السيد فودرنجي بيده. قال بروح كبيرة شاملة: «ماذا سنتناول؟»، وبأمر السيد مايدج، عدّل العشاء يتمكن شديد. قال ناظرًا إلى اختيار السيد مايدج: «بالنسبة لي.. أنا مغرم دائمًا بقدرج من البيرة بشكل خاص وخبز ويلزي محمص فوقه جبن مذاب، وسوف أطلب ذلك. لست مغرمًا بنبيذ بورجوندي كثيرًا». وفورًا ظهر الطعام كما طلب. جلسا طويلًا على العشاء، يتحدثان كنظيرين، كما رأى السيد فودرنجي حينئذٍ، بوهج من الدهشة والسرور، كل المعجزات التي قد يصنعانها حاليًا. قال السيد فودرنجي: «وبالمناسبة، سيد مايدج.. ربما أكون قادرًا على مساعدتك، على المستوى المنزلي».

قال السيد مايدج وهو يصب كأسًا من نبيذ بورجوندي المعتقد بمعجزة: «لا أتابعك جيدًا».

طلب السيد فودرنجي لنفسه طبقًا ثانيًا من الطعام الويلزي بدلًا من الخالي، وأخذ قضمة ملء فمه. قال: «كنت أفكر.. أنني قد أكون قادرًا (هم، هم) أن أصنع (هم، هم) معجزة للسيدة مينشين (هم، هم) تجعل منها امرأة أفضل».

وضع السيد مايدج الكأس ونظر بشك: «إنها.. إنها تعارض التدخل بقوة، تعلم، سيد فودرنجي، و-في الحقيقة- لقد تخطت الحادية عشرة ومن المحتمل أنها في الفراش ونائمة. هل تعتقد، بشكل عام..»

درس السيد فودرنجي هذه الاعتراضات. «لا أعتقد أنه لا ينبغي فعل الأمر أثناء نومها».

عارض السيد مايدج الفكرة لبعض الوقت، ثم استسلم. أصدر السيد فودرنجي أوامره، وواصل الرجلان طعامهما بقدر أقل من الارتياح، كان السيد مايدج يسترسل في التغييرات التي يتوقعها في مديرة منزله في اليوم التالي، بتفاؤل بدا متكلفًا وقلقًا قليلًا بالنسبة لقدرات السيد فودرنجي الفائقة، عندما بدأت سلسلة من الإزعاجات المشوشة من الطابق الأعلى.

تبادلا النظرات المتسائلة، وغادر السيد مايدج الحجرة على عجل. سمعه السيد فودرنجي ينادي مديرة منزله ثم سمع خطوات أقدامه تصعد إليها ببطء.

عاد القسيس بعد دقيقة أو نحوها، خطوته خفيفة، وجهه متألق. قال: «رائع! ومؤثر! مؤثر للغاية!»

بدأ يخطو فوق سجادة المدفأة.

«توبة! - أكثر التوبات تأثيرًا- رأيتها خلال حصاص الباب.

امرأة مسكينة! أكثر التغييرات روعة! إنها استيقظت.

لا بد أنها استيقظت بسرعة. نهضت من سريرها كي تحطم زجاجة خاصة من البراندي كانت في صندوقها. وكى تعترف بها أيضًا! لكن هذا يعطينا -يفتح أمامنا- آفاق إمكانات مذهشة. إذا كنا قادرين على فعل هذا التغيير الإعجازي لها...»

قال السيد فودرنجي: «الموهبة غير محدودة على ما يبدو.. وبشأن السيد وينش..»

«غير محدودة تمامًا». نحى السيد مايدج مشكلة وينش جانبًا، وعرض سلسلة من المقترحات الرائعة.. مقترحات اخترعها وهو يمشي فوق سجادة المدفأة.

الآن، ماهية تلك المقترحات لا تتعلق بجوهر هذه القصة. يكفي القول بأنها كانت نابغة من روح ذات نزعة خير مطلقة، نزعة الخير التي تأتي عادة بعد الطعام. يكفي القول أيضًا، بأن مشكلة وينش ظلت غير محلولة. وليس ضروريًا أن نصف إلى أي مدى تحققت تلك المقترحات. كان هناك تغيرات مذهلة.

شهدت ساعات الصباح الأولى السيد مايدج والسيد فودرنجي يسيران عبر ساحة السوق الباردة تحت القمر الهادئ، بنوع من نشوة صنع المعجزات، السيد مايدج متحمسًا جدًّا، والسيد فودرنجي بقامته القصيرة وشعره الخشن لم يعد خجولًا من عظمتهم.

لقد غيرا أخلاق كل سكير في قطاع البرلمان، حوّلوا كل البيرة والكحول إلى ماء (السيد مايدج تسلط على السيد فودرنجي في تلك النقطة)؛ لقد ذهبوا أبعد من ذلك وحسّنوا بشكل كبير خطوط السكك الحديدية في المنطقة، جفّفوا مستنقع فليندر، حسّنوا جودة التربة في منطقة وان تري هيل، وعالجا ثؤللول الكاهن. وأخذوا يفكران فيما يمكن عمله للدعامة المتضررة في الجسر الجنوبي. لهث السيد مايدج: «المكان.. لن يكون نفس المكان غدًا. ما أشد ما ستكون دهشة الجميع ومسرّتهم!» وفي تلك اللحظة فقط دقت ساعة الكنيسة تعلن الثالثة.

قال السيد فودرنجي: «أقول.. إنها الثالثة صباحًا! لا بد أن أعود. يجب عليّ أن أكون في عملي الساعة الثامنة. بجانب أن، السيدة ويمس..»

قال السيد مايدج: «نحن نبدأ فحسب». ممثّلًا بعذوبة القوة غير المحدودة. «نحن نبدأ فحسب. فكر في كل ما نفعله من خير. عندما يستيقظ الناس...»

قال السيد فودرنجي: «لكن..»

أمسك السيد مايدج بذراعه فجأة. كانت عيناه ساطعتين ووحشيتين. قال: «عزيزي الشاب.. لا داعي للعجلة. انظر» -أشار إلى القمر في ذروته- «يوشع!»

قال السيد فودرنجي: «يوشع؟»

قال السيد مايدج: «يوشع، لم لا؟ أوقفه».

نظر السيد فودرنجي إلى القمر.

قال بعد صمت: «إنه بعيد قليلًا».

قال السيد مايدج: «لم لا؟ إنه لا يتوقف بالطبع. أنت ستوقف دوران الأرض، تعلم، فيتوقف الوقت. إنه ليس كما لو أننا نسبب ضررًا».

قال السيد فودرنجي: «هم! حسنًا». تنهد: «سأحاول. هنا..»

فك السيد فودرنجي أزرار معطفه وخاطب كوكب الأرض، بكل ما أوتي من ثقة أتاحها قدرته. قال: «توقف عن الدوران تمامًا، هلا تفعل».

على الفور كان يطير خلال الهواء رأسًا على عقب بسرعة دزينات من الأميال في الدقيقة. رغم الدوائر التي كان يصورها كل ثانية، فكر؛ فالتفكير رائع، أحيانًا ببطء الزيت المتدفق، وأحيانًا بسرعة الضوء. فكر في ثانية، وأراد: «دعني أهبط آمنًا مطمئنًا. أيّا كان ما قد يحدث، دعني أهبط آمنًا مطمئنًا».

أراد الأمر في الوقت المناسب تمامًا؛ فملا بسه، الساخنة بفعل طيرانه السريع خلال الهواء، كانت تبدأ في الشياطين بالفعل. هبط قسريًا، لكن بلا اصطدام مؤذٍ على ما ظهر أنه تل من الأرض مشكل منذ لحظة.

كتلة ضخمة من المعدن والأحجار، هائلة جدًا مثل برج الساعة في منتصف ساحة السوق، ضربت الأرض بقربه، وارتدت من فوقه، وتفتتت إلى أحجار، وطوب، وقوالب، مثل قنبلة منفجرة. بقرة مندفعة صدمت واحدة من الكتل الكبيرة وتحطمت مثل بيضة.

كان هناك ارتطام جعل كل الارتطامات العنيفة العظيمة في حياته الماضية تبدو كصوت غبار متساقط، وتبع هذا سلسلة متدرجة من اصطدامات أقل. رياح واسعة زارت في كل مكان في الأرض والسماء لدرجة أنه بالكاد استطاع رفع رأسه لينظر. لهيئة كان منقطع الأنفاس وذهلاً حتى عن رؤية أين كان أو ماذا قد حدث. وحركته الأولى كانت ليتحسس رأسه وبطمئن أن شعره المتطاير لم يزل في مكانه.

«يا إلهي!» لهث السيد فودرنجي، بالكاد قادر على التحدث إلى العاصفة، «لدي صرير! ما الأمر؟ عواصف ورعد. ومنذ دقيقة فحسب كانت ليلة هادئة. إنه مايدج ما هيأني لهذا النوع من الأفعال. يا لها من رياح! إذا استمرت في الحماقة بهذه الطريقة فأنا واثب إلى حادث كالرعد!

«أين مايدج؟»

«يا لها من فوضى عارمة!»

نظر حوله بقدر ما سمح له معطفه المرفرف. كان مظهر الأشياء حقًا غريبًا بشدة.

قال السيد فودرنجي: «السماء على ما يرام على أية حال.. وتلك الأنحاء على ما يرام. رغم ما يبدو أن هناك عاصفة مرعبة قادمة.

لكن القمر هناك بالأعلى، كما كان منذ قليل. ساطعًا كالنهار. لكن بخصوص الباقي.. أين القرية. أين.. أين كل شيء؟ وماذا أنشأ تلك الرياح العاصفة بحق السماء. لم أطلب رباحًا».

عبتًا صارع السيد فودرنجي ليقف على قدميه، وبعد إخفاقه، بقي على أطرافه الأربع، متشبثًا. عاين العالم المضاء بالقمر باتجاه الريح، بذبول معطفه ترفرف فوق رأسه. قال السيد فودرنجي: «هناك شيء خاطئ على نحو خطير.. وماذا هو.. الرب يعلم».

في كل مكان لم يكن شيء مرئيًا في التوهج الأبيض خلال غيم الغبار المنتشر بعد عاصفة صارخة غير كتل متكومة على الأرض وأكداس من الدمار الشامل، لا أشجار، لا منازل، لا أشكال مألوفة.

فقط برية من الفوضى تلاشت أخيرًا في الظلام تحت الدوامات الدوارة، والبرق والرعد لعاصفة ثائرة بشكل مفاجئ. قريبًا منه في التوهج الشاحب شيء قد كان ذات مرة شجرة دردار، كتلة محطمة من الفئات، متشظية من الفروع إلى الجذر، وأبعد قليلًا هناك كتلة متشابكة من العوارض الحديدية - بشكل جلي جدًا سكة القطار الحديدية - ارتفعت خارج الفوضى المتكومة.

كما ترى، عندما أوقف السيد فودرنجي دوران كوكب الأرض الصلب، لم يضع اعتبارًا يتعلق بالأشياء التافهة القابلة للحركة فوق سطحه. وكوكب الأرض يدور بسرعة شديدة إذ إن السطح في خط استوائه يسافر بالأحرى أكثر من مائة ميل في الساعة، وفي خط عرض هذه المنطقة أكثر من نصف تلك السرعة.

لذلك فإن القرية، والسيد مايدج والسيد فودرنجي، وكل شخص وكل شيء قد قُذفوا بعنف بمعدل تسعة أميال لكل ثانية تقريبًا.. أي أنهم قُذفوا بقوة أكبر من لو أنهم قُذفوا من مدفع. وكل كائن إنساني، كل مخلوق حي، كل منزل، وكل شجرة - كل العالم كما نعرفه - قد ارتج بشدة وتحطم ودُمر تمامًا. انتهى.

هذه الأشياء بالطبع، لم تعجب السيد فودرنجي تمامًا.

لكنه أدرك أن معجزته قد أجهضت، وبالتالي أصابه اشمئزاز كبير من المعجزات. كان حينها في الظلام؛ فالسحب تجمعت معًا ومحت لمحتة اللحطية للقمر، والهواء كان ممتلئًا بوابل من الأدخنة المتقطعة المتنازعة المشوهة. هدير رياح عظيمة وأمطار ملأت الأرض والسماء، ومحددًا تحت يده في الغبار والمطر المتجمد في مهب الريح، رأى على ضوء البرق شلالًا ضخماً من المياه يتدفق نحوه.

«مايدج!» صرخ صوت السيد فوذرنجي الواهن وسط الصخب الرهيب: «هنا! مايدج!»

صرخ السيد فوذرنجي في الماء المتقدم: «توقف! أوه، لأجل السماء، توقف!»

قال السيد فوذرنجي للبرق والرعد: «دقيقة فقط.. توقف دقيقة ريثما أستجمع أفكارى.. والآن ماذا سأفعل؟ ما الذي سأفعله؟ يا إلهي! أتمنى لو كان مايدج هنا».

قال السيد فوذرنجي: «وجدتها.. ولأجل السماء دعنا نفعلها على الوجه الصحيح هذه المرة».

بقي على أطرافه الأربع، منحنيًا ضد الريح، عازمًا جدًا على إصلاح كل شيء.

قال: «آه! لا تدع شيئًا مما سأمر به يحدث حتى أقول «انتهى» يا إلهي! أتمنى لو أنني فكرت في ذلك من قبل!»

رفع صوته الضعيف ضد الإعصار، يصيح أعلى وأعلى كي يسمع نفسه يتحدث بلا جدوى.

«الآن إدًا! ها نحن! انتبه لما سأقوله حاليًا. قبل أي شيء، عندما يحدث كل ما أقوله، دعني أفقد قوتي الإعجازية، دع إرادتي تصير بالضبط مثل إرادة أي شخص آخر، ولتتوقف كل هذه المعجزات الخطيرة. لا يعجبني. أنا أتمنى، لو أنني لم أصنعهن. أتمنى ذلك جدًا. هذا أول شيء،

والثاني هو.. دعني أعود مثلما كنت قبل أن تبدأ المعجزات؛

فليعد كل شيء كما كان تمامًا قبل أن ينقلب ذلك المصباح المبارك. إنها مهمة كبيرة، لكنها الأخيرة. هل استوعبت الأمر؟ لا معجزات أكثر، كل شيء كما كان.. فلأعد إلى حانة لونج دراجون قبل أن أشرب كأس البيرة مباشرة.

انتهى الأمر! نعم».

نظف الغبار الذي يغطي عينيه المغلقتين، وقال: «انتهى!»

صار كل شيء هادئًا تمامًا. لاحظ أنه واقف منتصب القامة.

قال صوت: «هذا رأيك».

فتح عينيه. كان في حانة لونج دراجون، يجادل مع تودي بيميش بشأن المعجزات. لديه حس غامض بشيء كبير منسي في تلك اللحظة العابرة.

كما ترى، باستثناء فقدان قواه الإعجازية، كل شيء عاد كما كان؛ لذلك كان عقله وذاكرته بالضبط كما كانا عند بداية قصته. لذلك لم يعلم بالتأكيد شيئًا مما تمت حكايته هنا، ولا يعلم شيئًا مما تمت حكايته هنا حتى اليوم.

وبين أشياء أخرى، بالتأكيد، ما زال لا يؤمن بالمعجزات.

قال: «أنا أؤكد لك أن المعجزات، لا يمكن حدوثها.. أيًا كان اعتقادك. وأنا مستعد لإثبات الأمر بعمق».

قال تودي بيميش: «ذلك ما تعتقد.. أثبت الأمر إن استطعت».

قال السيد فوذرنجي: «انظر هنا، سيد بيميش.. دعنا نفهم بوضوح ما المعجزة.
إنها شيء معاكس لمجرى الطبيعة، مصنوع بقوة الإرادة.»